

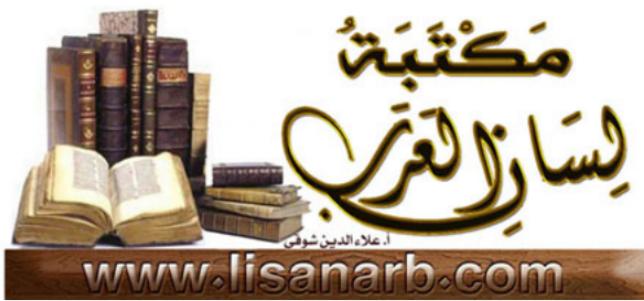
٧٠

ابوالبقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس

الدكتور محمد رضوان الدارية
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي
في جامعة دمشق





ابوالبقة الرندي
شاعر رثاء الأندلس

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
لِلْمُؤْلِفِ

الطبعة الأولى
١٣٩٦ - ١٩٧٦
الطبعة الثانية
١٤٠٦ - ١٩٨٦

ابو البقراء الرندي

شاعر رثاء الأندلس

الدكتور محمد رضوان الداية
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي
في جامعة دمشق

مكتبة
سعـد الدين
بـيـروـت
صـ.ـبـ.ـ ٨٧٤٣

مكتبة لسان العرب

www.lisanarab.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اشتهر أبو البقاء (أو أبو الطيب) الرُّندي بقصيدة رثى بها الأندلس، أو هورثى - على وجه الدقة - المدن والبلدان والحسون والمناطق التي سقطت لزمانه، في جملة حركة الاستغلال العارمة؛ وهي قصيدة مؤثرة مُشجّعة، اندفع فيها الشاعر مع حماسه الوطنية والدينية، فبكى ما صاع من ديار قومه، واستهضَّ الهِمَّ لاستردادِها وحرَّض على القِتال والجهاد. وكان لأوصافِ الأسرى، والنُّسوةِ المسيئات، والمغلوبين على أمرهم من المسلمين في القصيدة الأثرُ البعيد في التأثير في القارئ والسامع... فكانت قيمةً القصيدة مستمدَّةً مما فيها من عاطفة جياشة، ومما سرد صاحبُها من أخبارٍ مُحزنة؛ ومما صاغَ من عبارة، ومما أثار من حماسة.

وكانت المعلوماتُ عنه قليلة، بل إن المترجمين المعاصرین يقتصرُون - في الأغلب - على نُقولٍ قليلة وردت

عنه في (نفح الطيب) و(أزهار الرياض) للمقربي التلمساني؛ لا يكادون يُرثِّدون. ولم يكن الرُّندي في الحقيقة شخصية مغمورةً في زمانه، بل كان شاعراً بارزاً، متعدد جوانب المعرفة والثقافة والنشاط. فقد عُرف عنه عنايته، وتاليفه في علم الفقه، والفرائض، والحديث، وغيرها من العلوم الشرعية، بالإضافة إلى جوانب أدبية مختلفة. وحين نذكر جوانبه المتعددة تقف على شخصية الرُّندي المترسل الكاتب، والناقد البلاغي، وهو يُعدُّ واحداً من نقاد الأندلس المتأخرين، وقد وصل إلينا كتابه الندي: الوافي في نظم القوافي.

فنحن إذن أمام شخصية أندلسية مرمودة المكانة.

ولم يغفل معاصروه - ومن جاء بعدهم - عن مكانته، وعرفوا له حَقَّه وقدر وقدره، بحسب إمكانات ذلك الوقت وظروفه. وهو حَظِي بعناية دولة بنى الأحرر بعد أن استقرَّ مقامهم في غرناطة، واستتبَّت أمورهم فيها. وكان الشعر أحد جوانب تلك الشخصية التي جدَّدت ذكريات القرون الخالية من مشاهير الشعراء الأندلسيين البارزين.

ونقدم هذه الدراسة عن الرُّندي الأديب، الشاعر، الناقد، على أمل جلاء بعض الغموض الذي أحاط به عند المعاصرين، ودراسة جوانبه تلك دراسة تبيان أثره ومكانته في

الحركة الأدبية في الأندلس، وتقربه إلى القارئ والمتابع
تقريرياً، وتكون إسهاماً في العناية بالأندلس وآثارنا الأندلسية.

د. محمد رضوان الداية

وهران (بالقطر الجزائري)

كانون الثاني (جانفي) ١٩٧٥



الفَصَلُ الْأُولُ

الفُرْش
الحَيَاةُ السِّيَاسَيةُ
الحَيَاةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ
الحَيَاةُ الْعُقْلَيَّةُ

الحياة السياسية

كانت الأندلس - منذ أوائل عهد المسلمين بها - كما هو معلوم، ولاية تابعة للدولة الأموية في المشرق (دمشق)، ثم انفصلت واستقلت منذ زمن عبد الرحمن بن معاوية (الداخل). وقد تحدّد مصيرها منذ ذلك الوقت بأنْ تنقطع عن الدولة الأم، وأن تواجه حركة الاستغلال^(١) الإسبانية، التي بدأت صغيرة متواضعة ثم نمت مع مرور الأيام. وظلت كفة المسلمين راجحة طوال عهد بنى مروان؛ فلما كانت مدة دُول الفرق (الطوائف) ضعفت قوتهم وفشلوا، ونشبت الفتنة بينهم، وأضاعوا الجهاد، وأخلوا محله أطماءاً إقليمية ضئيلة لم تنفعهم في دوام ذُنيهم، بل كانت وسلاً عليهم وعلى أولادهم من بعدهم؛ وجنت الأندلس من وراء ذلك خسارة جسيمة.

(١) تقصد اصطلاح (الاستغلال) الذي استعمله أحد مؤرخي الأندلس المعاصرين د. حسين مؤنس بدلاً من (الاسترداد) فهو أكثر ملامة ودلالة. انظر الشعر الأندلسي ترجمة الدكتور مؤنس ص ٦١.

وعلى الرُّغم من سُرَيَان الدِّم المُرابطي فالموحدي في جسم الدُّولة، والأرض الأندلسية في فترتين متعاقبتين (أواخر القرن الخامس - أوائل السَّابع) فإنَ الانحدار كان مُستمراً بطيناً رويداً، إلى أنَ كان انهايار دولة الموحدين المفاجئ في كل من المغرب والأندلس، وتهافت الحكم الإسلامي وراء جبل طارق تهافتاً سريعاً، وانحصر المسلمين في دولة غرناطة.

وقد استغلت دول النصارى الإسبانية فترتين قلقتين في حياة الأندلس السياسية والعسكرية. الأولى هي فترة الشغور الأندلسي من السلطة الواحدة القوية في القرن الخامس (نحو ٤٢٥ - ٤٧٩) حيث استطاع - في هذه الأثناء - ألفونسو السادس (الأذفونش كما يُسميه العرب) أن يستغلب مدينة طليطلة المنيعة^(١) في وسط الأندلس مُؤذناً بخرم الخريطة الأندلسية ومنذراً بالتهم بلاد أخرى لا تقل عنها منعة وتحصيناً.

والفترة الثانية كانت بعد هزيمة العِقاب (٦٠٩) وانشغال الموحدين بخلافاتهم على السلطة، وبنشاط أشياعهم من بني مَرِين الذين بدؤوا ينقضون سلطانهم لإقامة دول جديدة على أنقاضهم.

(١) راجع التاريخ الأندلسي ٣٢٦ وما بعدها.

وافق هذا - في المدة والوقت - مع استعمار الحرب الصليبية التي غزت المشرق، وكان للأندلس - أيضاً - منها نصيب. واعتبر البابا الحرب في الأندلس لاستغلالها مقدسة، وحرضوا واحداً بعد واحد على أخذ مدنها ودولها بشتم الوسائل^(١). وهكذا؛ وبعد انهيار الأندلس الكبرى، سقط معظم المدن الأندلسية الغريرة، والمحصون الحصينة، والمراکز الحضارية العظيمة؛ واستدرك بنو الأحمر في دولة غرناطة ما أمكن أن يستدركوه وهم بين تماسك الشجاع ومُداراة المغلوب.

في هذا القرن السابع الذي شهد المأساة الأندلسية ولد أبو البقاء الرندي وعاش، وتوفي. لقد رأى وأدرك ما أصاب بنيان الأندلس العظيمة من التصدع والانهيار، فبكى ما ضاع، واستنهض الهم لاسترجاعه - دأب الشاعر الذي يحس بقضايا أمته ووطنه - ولاستدراك ما فات. وكانت صرخته صيحة في جملة صيحات الاستغاثة والاستصراخ، أثرت من بعد - وكاد يفوت الأوان - تعاوناً بين بني مرين (أصحاب المغرب الجدد) وبني الأحمر (ملوك غرناطة) دامَ مدة طويلة من الزمان.

(١) عصر المرابطين والموحدين: محمد عبد الله عنان ٢ : ٢٨٨ ، والتاريخ الأندلسي. د. عبد الرحمن الحجي ٤٦٤ . (وانظر مراجعهما).

عصر الرُّندي:

كانت الأندلس، في أواخر القرن السادس الهجري، تحت ظلِّ الموحدين. وكانت قاعدةُ الدولة في معظم أيامهم مدينة إشبيلية، وهي لا تزال تحفظ إلى اليوم بعددٍ من آثارهم العُمرانية والحضارية. وكانت الحرب الجهادية مستمرةً بينهم وبين الدول الإسبانية المعاصرة. وكانت تلك الدول في النصف الثاني من القرن السادس وأوائل السابع خمساً هي قشتالة ولِيُون، وأرْغُون، ونافار (نبرة) والبرتغال (البرتقال). وبعد أوائل الربع الأول من القرن السابع صارت إلى ثلاثة دول فقط حين ذابت دولتان منها في الثلاث الأخرى، وبقيت قشتالة وأرْغُون والبرتغال. واستمرت الدول الثلاث في حرب الاستغلال، فكانت البرتغال تهاجم من الغرب وقشتالة من الشمال والوسط وأرْغُون من الشرق.

وكانت آخر معركة هامة انتصر فيها المسلمون هي وقعة الأرك (٥٩١) قادها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ - ٥٩٥) ضد الفونسو الثامن ملك قشتالة المؤيد بجيوش أرغون ونبرة. وكان الفونسو هذا بجمع جيوشه والواfeldin عليه هو المنتصر سنة ٦٠٩ في (العقاب) على ابن المنصور المقب بالناصر. وقد كان وجود بطره (بِذُرُو الثاني) ملك أرغون في المعركة مع قوات أوروبية أخرى يُضفي على المعركة صفة الحروب الصليبية المماثلة لما في المشرق في

المدة نفسها^(١). وقد كانت هزيمة المسلمين (موحدين وأندلسيين) في العقاب منكرةً شنيعة، وكانت مفتاحاً لتداعي الأندلسيين تداعياً سريعاً^(٢). وسقطت على إثر المعركة عدّة مدن وحصون أهمها بِيَاسَة وأَبْدَة. واتسع الخُرُق - من بعد - على الرّاقع!

وتعانقت بعد هزيمة العقاب أمورٌ كثيرة أدّت إلى تهافت الحكم الإسلامي في الأندلس نُجِّملها فيما يلي :

١ - ضعفُ الدولة الموحدية بتهافت خلفائها، والانقسام بين السادة والأشياخ الموحدين فيما بينهم. وفي دولة المستنصر (ت ٦٢٠) الذي خلف الناصر: «فشل أمر الموحدين وأشرف دولتهم على الهرم، واستولى الفتن (الفونسو الثامن القشتالي) على المعاقل التي أخذها المسلمون، وهزم حامية الأندلس في كل جهة، واستبدلت السادة بالأطراف، والتآثر الأمور بالأندلس والمغرب أجمع: أما الأندلس: فِتَكَالُبُ الْعَدُوِّ عَلَيْهَا وَفَنَاءُ حُمَّاتِهَا؛ وأما المغرب فِي خِلَاءٍ كَثِيرٍ مِنْ قِرَاهْ وَأَمْصارِهِ مِنْ وَقْعَةِ الْعَقَاب»^(٣).

(١) عصر المرابطين والموحدين ٢ : ٢٨٩ . وراجع الروض المطار للحميري : ١٠٩ ، ١٣٨ . وقارن بـ (التاريخ الأندلسي - د. حمي).

(٢) راجع تفصيلاً لمقالات مؤرخي الأندلس كابن الإبار، وابن عذاري، والحميري وغيرهم في (تاريخ الأندلس) : ٤٩٤ وما بعدها.

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس الناصري ٢ : ٢٢٦ .

وَكُثُرَ المُتَآمِرُونَ مِنَ الْمُوَحَّدِينَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ فَانْفَسَحَ
الْمَجَالُ أَمَامَ الثَّوَارِ فِي الْعُدُوَّتَيْنِ لِلانتِقَاصِ وَالْاسْتِقْلَالِ.

٢ - ظَهُورُ دُولٍ أَقْلَ قُوَّةً مِنْ دُولَتِي الْمَرَابِطِينَ فَالْمُوَحَّدِينَ
فِي الْمَغْرِبِ. فَقَدْ خَلَفَ الْمُوَحَّدِينَ ثَلَاثَ دُولٍ: هِيَ دُولَةُ بَنِي
مَرِينَ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصِيِّ، دُولَةُ بَنِي زَيَّانَ فِي الْمَغْرِبِ
الْأَوْسَطِ، وَدُولَةُ الْحَفْصِيِّينَ فِي الْمَغْرِبِ الْأَدْنِيِّ. وَقَدْ كَانَ بَنُو
مَرِينَ هُمُ الْأَقْرَبُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ؛ وَسِيَحْتَلُونَ مَكَانَ الْمَرَابِطِينَ
وَالْمُوَحَّدِينَ فِي الْجَهَادِ بِالْأَنْدَلُسِ غَيْرَ أَنْ قُوَّةَ الْمَرِينِيِّينَ
وَاسْتِطاعَتْهُمْ لَمْ تَكُنْ كَسَابِقِهِمْ.

٣ - تَوَالَّيَ اسْتِغْلَابُ الْأَنْدَلُسِ مِنْ جَهَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ. فَفِي
نَحْوِ ثَلَاثِ قَرْنَيِّنَ مِنَ الزَّمَانِ ضَاعَتْ مُعْظَمُ الْقَوَاعِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ.
فَبَعْدِ الْعَقَابِ (٦٠٩) كَانَتْ وَقْعَةُ قَصْرِ أَبِي دَانِسِ (٦١٤).
وَكَانَ نَجُومُ (ظَهُور) عَدْدٍ مِنَ الثَّوَارِ فِي الْأَنْدَلُسِ (انْظُرْ الْفَقْرَةَ
الْتَّالِيَّةَ) عَامِلًا مُسَاعِدًا لِسُقُوطِ الْمَدَنِ وَاسْتِغْلَابِهَا لِضَعْفِهِمْ
وَسُوءِ تَدْبِيرِهِمْ وَتَشْتِتَتْ قَوَاهِمُ وَمُحَارِبَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَحْيَانًا.
وَهَكَذَا سَقَطَتْ مَارِدَةُ وَبِطْلِيوسُ (٦٣٨) بَعْدَ هَرِيْزِيمَةِ ابْنِ هُودِ
أَمَامَ فَرِنَانْدُو الثَّالِثِ مَلِكَ قَشْتَالَةِ. وَسَقَطَتْ أَبِيَّدَةُ (٦٣٠).
وَبِلَنْسِيَّةِ (بِيدِ خَايِمِيِّ الْأَوَّلِ مَلِكِ أَرْغُونِ) وَشُقْرَ (٦٣٩)
وَدَانِيَّةِ (٦٤١) وَشَاطِيَّةِ (٦٤٤)، وَمُرْسِيَّةِ (صَلْحَانِ بِيدِ مَلِكِ قَشْتَالَةِ
فَرِنَانْدُو (٦٤١)) وَسَقَطَتْ قُرْطَبَةُ فِي مَدَةِ الْخَلَافَ بَيْنَ ابْنِ هُودِ

وابن الأحمر ٦٣٣ . وسقطت جيـان (٦٤٣) وإشبيلية (٦٤٦) . وكانت مـيـرـقة (من الجزائر الشرقية) قد سقطت في مـعرـكة مؤـثـرة سنة ٦٢٧ . ويرى الناظـر إلى الخـريـطة الأنـدـلـسـية أنها كانت تـطـوي سـرـيعـاً ، وأن الاستـغـلـابـ يـأخذ شـكـلاً مـأسـاوـاً لـمـيـكـنـ يتـوقـعـهـ مـلـوكـ الدـوـلـ الإـسـپـانـيـةـ أنـفـسـهـمـ .

٤ - ظـهـورـ عـدـدـ مـنـ الشـواـرـ والمـتـغـلـبـينـ فـيـ الأنـدـلـسـ انـقـضـواـ عـلـىـ مـلـكـ الـموـحـديـنـ وـرـفـعـواـ رـايـاتـ إـقـلـيمـيـةـ فـعـادـتـ الفـتـنةـ منـ جـدـيدـ وـتـهـيـأـتـ ظـرـوفـ مـشـابـهـةـ لـعـصـرـ الطـوـافـ السـابـقـ قـبـلـ قـرـنـيـنـ مـنـ الزـمـانـ . وـكـانـواـ حـكـامـاًـ ضـعـافـاًـ لـيـسـ لـهـمـ مـقـومـاتـ الـقـادـةـ : خـلاـ لـهـمـ الـجـوـ فـنـعـقـواـ وـلـمـ يـفـلـحـواـ فـيـ اـسـتـقـاذـ أـمـرـ الأنـدـلـسـ^(١) ، اللـهـمـ إـلـاـ مـاـ كـانـ مـنـ أـمـرـ بـنـيـ الـأـحـمـرـ فـيـ غـرـنـاطـةـ .

● في سنة ٦٢٥ خـرـجـ مـحـمـدـ بـنـ هـودـ الـجـذـاميـ فـيـ نـوـاحـيـ مـرـسـيـةـ ، وـدـخـلـهاـ مـسـتـولـياـ عـلـيـهاـ مـنـ صـاحـبـهاـ أـبـيـ الـعـبـاسـ الـمـوـحـديـ ، وـخـطـبـ لـلـخـلـيـفةـ الـعـبـاسـيـ ، وـبـاـيـعـتـ لـهـ قـرـطـبةـ إـشـبـيلـيـةـ وـشـاطـبـةـ وـغـيـرـهـاـ مـدـدـ قـصـيـرـةـ ، وـمـاتـ سـنـةـ ٦٣٥ـ .

● صـارـتـ بـلـنـسـيـةـ إـلـىـ أـبـيـ جـمـيلـ زـيـانـ بـنـ مـدـافـعـ بـنـ مـرـدـنـيـشـ الـجـذـاميـ بـعـدـ أـنـ طـرـدـ السـيـدـ أـبـاـ زـيـدـ الـمـوـحـديـ ،

(١) تاريخ الأنـدـلـسـ فـيـ عـهـدـ الـمـرـابـطـينـ وـالـمـوـحـديـنـ (أشـبـاخـ) تـرـجـةـ مـحـمـدـ عـبـدـ اللهـ عـنـانـ : ٣٩٩ـ .

وبقيت في يده إلى أن احتلّها ملك أرغون خايمي الأول، على الرغم من محاولة ابن مردنيش الاستئصال بالأمير الحفصي صاحب تونس على يد كاتبه ابن الأبار.

● وفي سنة ٦٢٩ قام محمد بن الأحمر بحصن أرجونة (من أعمال قرطبة) وتنازع مع ابن هود إمارة الأندلس وكانت بينها وقائع ومناورات سياسية، انتهت بعد موت ابن هود (٦٣٥) وبمبايعة غرناطة لابن الأحمر واستقراره فيها، كما سنتين.

٥ - ظهور ملوك أقوياء في الدول الإسبانية المجاورة، مع استقرار الحكم في أيديهم، وتطاول مدعومهم، مع التصميم على استغلال الأندلس، وتعاونهم على ذلك. أضاف إلى ذلك المساعدات العسكرية والبشرية المستمرة التي كانت تقد عليهم من البلاد الأوروبية^(١).

٦ - تحمل المغرب والأندلس للخطوب الكثيرة الأخرى، فمنها: قلة عدد السكان، وخصوصاً المحاربين منهم بسبب الحروب المتراكمة، ويسبب عدد من الهزائم الشديدة التي انتصرت فيها الدول المجاورة لغرناطة. ومنها إصابة الناس

(١) المصدر السابق ٤٤١ - ٤٤٥. وانظر مقدمة الحلقة السيراء لابن الأبار (الدكتور حسين مؤنس: ص ٢٥ على الحصوص).

بالأوبيه والطواعين كما في عام ١٦١٠^(١). ومنها تناوب سنوات القحط والجدب والجراد والغلاء في أثناء هذه الأزمة السياسية العسكرية كما هو الحال في سنوات ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٣٠، ٦٣٥^(٢).

دولة غرناطة في ظل بنى الأحمر:

خرج محمد بن يوسف (المعروف بابن الأحمر) في أرجونة سنة ٦٢٩. وهو من أسرة تُعرف ببني نَصْر، وبيني الأحمر. وينتهي نسبهم إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنباري. وكان خروجه - كما سلف - في مدة تهاوي سلطان الموحدين؛ فدعا لنفسه، وخالف ابن هود، فأطاعته بئاسة ووادي آش ونواحيهما، وخطب للمُستنصر الحفصي وأطاعته قرمونة وقرطبة وإشبيلية حيناً ثم عادت إلى ابن هود، وتفاهم ابن الأحمر مدة مع ابن هود لما جاءه التأييد من الخليفة العباسي.

وفي رمضان ٦٣٥ ثار أهل غرناطة بوالى ابن هود عليهم وهو عتبة بن يحيى المغيلي، وخرج وفداً استقدم ابن الأحمر ونصبه أميراً على غرناطة، وما انضم إليها من مُؤسسة الأندلس وجنوبيها مما شكل دولة غرناطة التي قاومت ببسالة وشجاعة

(١) الاستقصا للناصرى ٢٦٢: ٢ .

(٢) الاستقصا للناصرى ٢: ٢٦٤ .

قرنين ونصف قرن من الزمان. وكان موقف ابن الأحمر حرجاً، وكان في الوقت نفسه يضطرم بحماسة وطنية ودينية غير أنه لم يستطع أن يقف في مواجهة تيار الهجمات القشتالية - الأرغونية - البرتغالية دون التضحيات الجسمانية. ففي سنة ٦٤٣ هـ دن ابن الأحمر فرناندو الثالث ملك قشتالة وأضطر لأن يترك له عدداً من المدن والمحصون كأرجونة وجيان^(١). ومن جراء الهدنة معه كانت إشبيلية فريسة سهلة وسقطت سنة ٦٤٦. بينما كان ابن محفوظ المُتوّلي نظراً بعض جهات الغرب قد تنازل عن عدد من الحواضر الهمامة مثل طليبية والعُلَى وشِلْب. وتالت الأحداث بعد ذلك على غرناطة بين مسالمة بني الأحمر لقشتالة وتحالفهم معها وبين المدافعة ومحاولة استرداد بعض المفقود من أرض الوطن. وفي ٦٦٠ هـ ز ابن الأحمر غزوة نصرانية على أراضيه، بمعونة مطوعة قدمت من المغرب^(٢). وسقطت مدينة إستِيجة سنة ٦٦٢ بتنازل صاحبها ابن يونس لملك قشتالة^(٣). واشتد ضغطُ القشتاليين على غرناطة بقيادة صهر ملکهم دون

(١) في نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين (م. عنان) أن ابن الأحمر تعهد أيضاً بالانضواء تحت طاعة فرناندو وبحضور مجلس الكورتيس (شبيه مجلس النواب). وهذا يعني الطاعة والولاء. وانظر دراسته حول الموضوع ص ٣٠ وما بعدها من الكتاب المذكور.

(٢)، (٣) انظر نهاية الأندلس (م. عنان) : ٣٣ - ٣٠

نونيودي لارا، فكتب أبو العباس العَزْفي يستصرخ قبائل المغرب لإنقاذ الأندلس. وأنشد أبو الحكم مالك بن المُرَاحل قصيدة مؤثرة لاستئناف الهم تليت في مسجد فاس مطلعها^(١):

استنصرَ الدِّينَ بِكُمْ فَاقْدِمُوا
لَا دَتَ بِكُمْ أَنْدَلُسْ نَاهِيَةٌ
أَسْرِجُوا لِنَصْرِهِ وَالْجُمُوا
لَا تُسْلِمُوا إِلَّا سَلَامًا يَا إِخْوَانَا

واستردت غرناطة مدينة شَرِيش بعد حملة بني مرين التي أنجدت الأندلس سنة ٦٦٢. وبعد ضغوط قشتالة بايع ابن الأحمر للمستنصر الحفصي صاحب تونس، ولكن هذه الخطوة لم تؤدِّ إلى أن ترفع الضغط عن غرناطة.

ويرى الأستاذ عنان في تاريخه أنه لما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم لم يرَ ابن الأحمر مناصًا من أن يخطو خطوة جديدة في مُهادنة ملوكهم ومصادقته فنزل له أواخر سنة ٦٦٥ عن عدد كبير من المدن والمحصون منها شريش والمدينة والقلعة^(٢). وقدر صاحب الذخيرة السنية جملة ما تنازل عنه بنحو أربعين مُسْوَرًا من المُدُنِ والمحصون^(٣)، وقيل مئة !.

(١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرinية لابن أبي زرع الفاسي: ٩٨.

(٢) نهاية الأندلس: ٣٦.

(٣) الذخيرة السنية: ١١٢.

ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة لـالفنون
(الفنون) قال الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرُّندي يرثي
بلاد الأندلس، ويستنصر بأهل العُدوة من مرين وغيرهم بهذه
القصيدة:

لكل شيء إذا مات نقصان
فلا يغفر بطيب العيش إنسان^(١)

وعلى رغم هذه التنازلات والمعاهدات، فقد كان الضغط
على دولة غرناطة كبيراً، وقد هاجم الفونس العاشر (القشتالي)
البلاد الأندلسية سنة ٦٧١. فاستدرجَ ابن الأحمر بالمرinيين. وتوفي
في العام نفسه؛ وأوصى ابنه محمداً (الفقيه) الذي ولِي بعده
بأن يصل يده بيد المرinيين. وقد تم اللقاء بين النصريين
والمرinيين. وعبر السلطان المرini أربع مرات في أثناء
حكمه لمساعدة الأندلس والجهاد فيها. وهزم القشتاليون بعد
هذا التحالف عدداً من الهزائم أهمها في إستجة ٧٧٤. وترك
المرinيون حامية مغربية دائمة في الأندلس تحت رعاية قائد
منهم عرف بشيخ الغزاة. وأول من تقلد هذا المنصب
عبد الله بن أبي العلاء، وبقيت مشيخة الغزاة في أسرةبني
العلاء. وعلى الرغم من أن العلاقة بين بنى نصر وبنى مرين

(١) المصدر السابق: ١١٢.

لم تكن دائمًا خالصة من المشكلات الجانبية^(١) فإن الصورة العامة هي استرداد الأندلس لعهدي من الثبات والقوة فقدته منذ زمن بعيد. وحكم محمد الفقيه حتى سنة ٧٠١.

حال المشرق :

وإذا التفتنا نحو المشرق في هذه المدة وجدناه يعاني من الحملات الصليبية التي استهدفت عدداً كبيراً من أقطاره مع التركيز على بيت المقدس، في حرب ضروس. وقد تصدى لها الزنكيون والأيوبيون من بعدهم، ثم انتهت المهمة على يد المماليك، فانقطع أمل الأوروبيين بعد ذلك.

دخل الصليبيون بلاد الشام، وعليها حكام من السلاجقة المتفرقين على بلدانها الرئيسية؛ فاحتلوا أنطاكية والرها، وامتدوا إلى القدس وغيرها من البلاد. ولم يلبث أن ظهر بنو زنكي في الموصل والجزيرة الشامية، وكان أشهرهم عماد الدين ونور الدين «الذين بدأ عمليّة منظمة لحرب الصليبيين وتصفيتهم»^(٢).

(١) مثل ترتيب قضايا (الغزاة) المجاهدين المربيين في الأندلس، ومشكلة أصحاب بني الأحر في مالقة (بني أشقلولة) الذين دخلوا مع أقاربهم النصريين في خلافات داخلية.

(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية (كارل بروكلمان) ترجمة فارس وبعلبكي (الطبعة الخامسة) صفحة ٣٤٧. وراجع الصفحات التالية.

وظهر في دولة الزنكيين صلاح الدين الأيوبي «مع مجموعة من أسرته هو أشهرهم». وحصلت مصر في يد نور الدين زنكي، وكان قائده وابعوه فيها هو صلاح الدين الذي سعى لـإلغاء الخلافة الفاطمية وصارت مصر جزءاً من دولة الزنكيين الممتدة ما بين أطراف العراق والشام ومصر، مروراً بأجزاء من فلسطين. ومدّ صلاح الدين نفوذه بالاستيلاء على اليمن. وأآل الأمر بعد حوادث كثيرة إلى أن ترأس صلاح الدين الدولة، وتولى محاربة الصليبيين فانتصر في حطين، وفتح القدس سنة ٥٨٣ واسترد معظم ما بآيديهم من القلاع والمدن^(١).

وتولى بقية الأيوبيين الذي تعاقبوا بعد صلاح الدين (توفي سنة ٥٩١) مهمة محاربة الصليبيين. وتم القضاء عليهم في أيام المماليك بشكل نهائي.

أما الخلافة العباسية فقد سقطت سنة ٦٥٦ هـ حين وصلت هجمة المغول إلى بغداد، مروراً بأقطار الشرق الإسلامي حيث عاثوا فساداً، وخرّبوا كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية. غير أن جيوشهم قوبلت بالهزيمة الساحقة في عين

(١) في رحلة ابن جبير نص هام عن تقدير الرحالة الاندلسي لشخصية صلاح الدين، وتشييه بعض أمراء الفترة هناك بملوك طوائف الأندلس - راجع الرحلة (ط دار صادر) : ٢٥٤.

جالوت سنة ٦٥٨ على يد جيوش السلطان قطز بقيادة بيبرس .
وكان المغول بذوقوا غزوهם للشرق الإسلامي في مطلع القرن
السابع ناثرين الخراب والدمار حيثما حلوا وسلكوا . وكانت
ذروة أعمالهم إسقاط الخليفة وخراب بغداد . وفي الواقع كان
سلطان الخليفة متلصاً على الصعيدين السياسي والعسكري
منذ زمن بعيد .

* * *

الحياة الاجتماعية

كانت الأندلس في أوائل القرن السابع ما تزال ولايةً تابعةً للدولة الموحدية. فلما كان الانهيارُ والانحدارُ قام الطامعون والطامعون، واضطراً حبل السياسة والاستقرار بظهور بنى هُود وبنى مَرْدَنِيش وبنى الأَحْمَر وغيرهم. ولم يستطع أحد من المؤثرين أن يجمع شملَ الأندلس تحت رايته. أما محمد بن الأَحْمَر فقد احتفظ بما أمكنه من الأندلس، ولكنه كان قليلاً بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل ربع قرن. وضمت الأندلس الباقيَ الجزء الجنوبي الشرقي من جنوبي الوادي الكبير إلى الجزيرة الخضراء وامتدت مشرقاً بين مدينة بسطة وثغر المريّة، وغرباً حتى شَدُونَة في ولاية قادس. وشملت مملكة غرناطة ثلاثة ولايات هي ولاية غُرناطة وقاعدتها مدينة غرناطة، وولاية المريّة في الشرق، وولاية مَالَقَة في الجنوب.

وقد صارت غرناطة - بعد سقوط الأقصى الكبير - عاصمة الدولة وحاضرتها واتسعت مساحتها وكثُر سكانها وازدهرت

بالأعمال والصناعات، وبرزت بين مدن الأندلس الباقيه. ولقيت عنابة أمراء بني الأحمر واحداً بعد واحد، وخلدت آثاراً لا تزال إلى اليوم شاهدة بحضارة عريقة.

وقد ازدحمت غرناطة واتسعت بمن وفد إليها واستقر بها من أهل البلاد الأندلسية التي سقطت في أيدي الإسبان^(١). فعلى الرغم من المعاهدات والمواثيق التي كان تتم بين الأندلسيين المغلوبين وخصومهم، فإن الهجرة والتزوح كانت الضيمان الوحيد للأندلسيين للاحتفاظ بلغتهم ودينهم وحياتهم^(٢).

ومع ذلك فإننا نسجل هنا ظاهرة أخرى، وهي الهجرة من الأندلس إلى المغرب في بلدانه المختلفة من أدناه إلى أقصاه. وقد وصل عدّه من الأندلسيين - وخصوصاً أهل العلم والثقافة - في هجرتهم إلى المشرق.. وعلى كل حال فإن تقدير بعض الباحثين أن «مملكة غرناطة كانت تضم في عصورها الأخيرة زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس. وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس. وكانت الأمة الأندلسية عندئذ خليطاً من أعقاب العرب والبربر والمولددين أو المسلمين الإسبان الذين أسلموا عند الفتح»^(٣).

(١) انظر نفح الطيب ٤ : ٥١٠.

(٢) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنصرين (م. عنان) : ٤٨.

(٣) المرجع السابق.

وكانت العُروبة تغلب على السكان المُدنين في مملكة غرناطة ولا سيما بعد أن نزح إليها على إثر سقوط القواعد الأندلسية في يد النصارى كثير من سادة البطنون العربية القدمة.

وازدهرت في دولة غرناطة حضارة رفيعة تناولت الجوانب المتعددة في العلوم والآداب والصناعات والعمان، بالإضافة إلى استمرار التقاليد الزراعية والتجارية على نشاطها ونموها. ولم يكن يضعفها غير الاضطراب السياسي والمعارك التي تنشب بين الفريقين، وعلى الرغم من أن الأصل في العلاقة بين غرناطة وجوارها هو الحرب والقتال، فقد كانت هناك معاهدات تجارية تقوم بين غرناطة وبينهم «وكانت العلاقات التجارية أيام السُّلْم تجري بانتظام»^(١).

(١) نهاية الأندلس: ٥٧.

الحياة العقلية

تزخر كتب الترجم الأندلسية - لهذا القرن السابع - بالعدد الجم من أسماء العلماء والمهندسين والأدباء والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم. وقد تفرق علماء البلدان الأندلسية المحتلة في البلاد، فأكثروهم أوى إلى مدن مملكة غرناطة، وانتشر قسم منهم في أقطار المغرب الإسلامي وشرقه.

وقد لا يقع الملاحظ على طفرات علمية كبيرة في مدة دولة غرناطة، غير أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الحياة الفكرية والحضارية كانت استمراً أميناً لما وصلت إليه في العصر الموحدي السابق، مع محاولات دائمة لإبقاء نسخ الحياة متعدداً متطوراً، في كلا الجانبيين العملي التطبيقي والنظري الفكري.

وظلت السمات العامة للحضارة في غرناطة سمات إسلامية أندلسية تميز بطبعها الخاص. أما وجوه المشابه

التي لاحظها ابن خلدون بين الأندلسين والإسبان في زمانه فقد جاءت متأخرة، وهي مشابه تتعلق بالملابس والأسلحة والعادات إلى أشياء أخرى ذكرها.

وقد استمرت العلوم الشرعية والإسلامية بعمامة على مستواها الرفيع وظهر عدد كبير من العلماء الذين تابعوا أمور الفقه والتفسير والحديث والأصول. وخرجت علوم اللغة العربية وأدابها رجالاً ما زالت شهرتهم متصلة إلى اليوم. أما الشعر فبقيت له مكانة عند أصحاب الشأن - على الرغم من اضطراب الأمور العامة - وبقيت في الشعر الأندلسي روح الشعر الرفيع وأصالبة الشعراء المتمكنين. وظهر رجال في علوم الطب والهندسة والبنات والصيدلة، كما نبغ جغرافيون ورحلة ومؤرخون عرّفهم المشرق نفسه، وقدرهم منازلهم من التكريم. ولعل هذا الاستمرار الحضاري ناشيء عن أن المصائب الأندلسية الفادحة في خسران الأرض وانحسار السيادة لم يصل إلى استهلاك الحضارة وانحدار المدينة. كما أن المستوى الذي وصلوا إليه حتى عصر الموحدين لم يكن حضارة قشرية زائفة تضيئُ عند أول هزة أو أدنى اختبار. ويبقى السؤال مطروحاً عن هذين الوجهين المختلفين، وقد يكونان أحياناً متناقضين: أحوال الأندلس السياسية - العسكرية من جهة، وأحوالها الحضارية والثقافية من جهة أخرى.

فمن المُحدثين المشهورين في القرن السابع: أبو الربيع

سالم بن سليمان الحميري الكلاعي البلنسي (٦٣٣)، وأبو الحسن علي بن محمد بن القطان (٨٢٧) وابن خلفون الأزدي الأونبي (٦٣٥). [نسبة إلى مدينة أونبة].

واشتهر من المؤرخين بنو سعيد، ومنهم صاحب كتاب المُغرب في حل المَغْرِب^(١) بالإضافة إلى مؤرخين من المغرب اتصلوا بالأندلس وأرّخوا لها كعبد الواحد المراكشي صاحب المُعْجَب، وابن عذاري صاحب البيان المُغْرِب^(٢).

ومن الجغرافيين أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَير (٦١٤) وأبو محمد العَبْدَرِي. ولهم رحلتان مشهورتان. ومنهم علي بن سعيد الوارد ذكره في المؤرخين أيضاً. ولمحمد بن عمر السبتي (المشهور بابن رُشيد) رحلتان اثنتان إلى المغرب، وإلى ديار الأندلس^(٣).

وبنبع في إشبيلية أسرةبني زهر في الطب على الخصوص، بالإضافة إلى نشاطهم العلمي والأدبي. ومن أطباء هذه المدة المشهورين أحمد بن مفرج الأموي الشهير بابن الرومية (ت ٦٣٧). ومن علماء النبات ابن البيطار المولود في مالقة ٥٩٣، والمُتوفى بدمشق ٦٤٥. وظهر علماء

(١) طبع في القاهرة في جزأين (تحقيق د. شوقي ضيف).

(٢) والكتابان مطبوعان أيضاً.

(٣) راجع تاريخ الفكر الأندلسي: ٢٦٢ وما بعدها.

في الهندسة والرياضيات، كأبي بكر محمد بن أحمد الرُّقوطي (٧٤٤).

أما الأدباء والشعراء فكانوا جمّهراً وفيّة تدل عليهم كتب الترجم العامة وكتب الترجم الأدبية التي خلفها هذا العصر مثل: المُغَرِّب لابن سعيد، وصلة الصلة لابن الزبير، والمُعْجِب للمرَاكشي والمُعْجَم لابن الأَبَار وغير ذلك من كتب كثيرة غزيرة.

وكان في جملة الشعراء المشهورين: ابن الأبار وابن سهل الإشبيلي وأبو البقاء الرُّندي وحازم القرطاجي. كما أن الموشح والزجل كانا فيّن رائجين، وإن كان الموشح قد تراجع على الصعيد الشعبي أمام تقدم فن الزجل بعد نبوغ ابن قُزمان ومَدْغَلِيس. وفي كتاب (المُغَرِّب) نماذج هامة من الموشحات والأزجال لرجال هذا العصر.

وفي هذه المدة نفسها «القرن السابع» نجد حركة النقد الأدبي نشيطة، متابعة لما سبق. ونقف في هذا المجال عند شخصيتين نقديتين هما: حازم القرطاجي صاحب كتاب «منهاج البلوغ وسراج الأدباء» وأبو البقاء الرُّندي صاحب كتاب «الوافي في نظم القوافي» وقد وصل إلينا الكتابان. وبعد كتاب «حازم» من أهم كتب النقد الأدبي في الأندلس والمشرق.



حِيَاةُ الرَّنْدِي

الفَصْلُ الثَّانِي

اسمها وكنيتها:

هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن علي بن شريف، النَّفْزِيُّ، من أهل رُنْدَة^(١).

ويكتفى أبا الطَّيْبِ، وأبا البقاء. والحق أن ابن الخطيب في الإحاطة لم ينقل عن أحد ممن ترجموا له أنه يمكنه بغير أبي الطَّيْبِ. وأول من ذكره بكنية أبي البقاء - بالإضافة إلى كنيته الأخرى - هو المقرئ في نفح الطَّيْبِ. وقد ذكره عدة مرات في النَّفحِ والأَرْهَارِ واختار من شعره، ونقل قصيده في رثاء الأندلس. ولا بد من الافتراض أن للرَّنْدِيِّ كنيتين عُرف بهما^(٢). ويبدو أن شیوع كنية أبي البقاء^(٣) في المشرق والمغرب جاءت بعد المقرئ الذي ذكر تلك الكنية مرة واحدة في كتابه، ويرجح عندي أن (أبا الطَّيْبِ) كانت الأشهر في زمانه.

(١) ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة، ونقل عنه ابن الخطيب في الإحاطة وابن عبد الملك في الذيل والتكميلة (بقية السفر الرابع): ١٣٦ - ١٣٩ .
وابن الخطيب في الإحاطة (مخطوطة الإسکوریال: ٣٧). وذكره صاحب الذخيرة السنوية حين ذكر قصيده في رثاء الأندلس. والمقرئ في نفح الطَّيْبِ، وأَرْهَارِ الرياض (في مواضع عديدة).

وانظر بروكلمان 925, SII, 860, Brock.

(٢) راجع مقالة الاستاد عبد الله كنون عن الرَّنْدِيِّ في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية المجلد ٦ العدد ١ - ٢ الصفحة ٢١٢ .

(٣) يكثر أن يكتفى بـأبي البقاء من يسمى به (خالد).

وفي خبر أورده الرندي^(١) عن أحد أبناء الأمراء المسمى أبو سعيد بن نصر أنه كان سمع أبياتاً غزلية للرندي فاعجب بها. واتفق أن ورد الشاعر على والده الأمير النصري فمدحه بقصيدة جمع فيها أبيات الغزل تلك إلى أبيات في المدح، فظنّ أبو سعيد بن نصر أن هذا الشاعر - وقد نسي أنه هو صاحبها - سرق الأبيات. فقال الرندي قصيدة مترجمة يعتذر فيها ويوضح ويبين الموقف، ومن القصيدة الجديدة:

منك القبول ومني اليوم معاذرة
إلى علاك ولا ذنب ولا لئم
أنا أبو الطيب الثاني لمُتَقَدِّدٍ
وأنت سيف المعالى الأوَّلُ الذُّعْلَمُ

نسته

يتسب الرندي إلى قبيلة نَفْرَة، وهي من قبائل البربر.
ويتسمى إلى مدينة رُندة. قال في الروض المغطّار^(٢) إنها «من
مدن تاڭرُنَا». وهي مدينة قديمة بها آثار كثيرة، وهي على نهر
يُنْسَبُ إِلَيْهَا». كما نقل ابن سعيد في (المُغْرِب) أنها أحد
معاقل الأندلس الممتنعة، وقوعها المرتفعة. وقد كانت في

(١) الواقي (نسخة تيمور باشا: ٦٤ - ٦٥).

(٢) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) للحميري : ٧٩ .

أيام الدولة المروانية في منطقة ثورة عمر بن حفصون ودار خَوْلَهَا خِلَافٌ ونشبت معارك في أيام ملوك الطوائف حتى حصلت في يد بَنِي عَبَادٍ. وبقيت رُنْدة في جملة دولة غرناطة الإسلامية الباقية إلى أواخر أيامها^(١).

مولده ووفاته:

ولد في محرم سنة إحدى وست مئة، وتوفي عام أربعة وثمانين وست مئة. قال ابن الخطيب «نقلت من خط صاحبنا الفقيه المؤرخ أبي المحسن بن الحسن - أمتَعَ اللَّهُ بِهِ - قال أنسَدَنِي الشِّيخُ الرَّاوِيُّ الْأَدِيبُ الْقَاضِيُّ الْفَاضِلُ أَبُو الْحَجَاجِ يُوسُفُ بْنُ مُوسَى بْنِ نَعْمَانَ الْمَشَاقِرِيِّ، قَالَ أَنْسَدَنِي الْقَاضِيُّ الْفَاضِلُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنِ الْوَزِيرِ، قَالَ أَنْسَدَنِي شِيخِيُّ الْأَدِيبِ أَبُو الطِّيبِ صَالِحِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ يَزِيدِ بْنِ صَالِحِ بْنِ شَرِيفِ الرَّنْدِيِّ لِنَفْسِهِ لِتَكْتُبَ عَلَى قَبْرِهِ»:

خَلِيلِيَّ بِالْوَدِ الَّذِي بَيَّنَا اجْعَلَا
إِذَا مَتُّ فَبِرِي عُرْضَةً لِلتَّرْحُمِ
عَسْنِي مُسْلِمٌ يَدْنُو فِي دُعَوَّةِ بِرْحَمَةٍ
فَإِنِّي مُحْتَاجٌ لِدُعَوَةِ مُسْلِمٍ^(٢)

(١) انظر: الروض المعطار: ٧٩، والمغرب لابن سعيد ١: ٣٤ ومعجم البلدان ٣: ٧٣.

ودائرة المعارف الإسلامية - مادة رندة.

وقد سقطت رندة في يد الملوك الإسبانيين بخدعة سنة ٨٩٠ هـ.

(٢) الإحاطة (ترجمة الرندي).

أسرته :

لا نجد في كتب الترجم حديثاً عن أسرته وأولاده، ولا نعرف من اشتهر من أهله بعده. غير أننا نعرف أن له ابناً يدعى أباً بكر قد توفي صغيراً (ابن ٨ سنوات). وقد رثاه بأكثر من قصيدة في كتابه الواقي . وقال الرندي في مقدمة قصيدة أنسدتها في المغرب (بَرَّ الْعُدُوَّة) إنه يتшوق إلى الأهل والوطن ، ولكنه لم يُفْصِّلْ في ذكر أهله. ولله قصيدة في رثاء والده ، ذكرها في الواقي .

مشيخته :

قال ابن عبد الملك^(١): «روى عن آباء الحسن: أبيه، والمداج، الفخار الشريسي، وأبي الحسين بن قطرال، وأبي القاسم بن الجد التونسي». وقال ابن الزبير - كما نقل لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة - حين ترجم له «تكرر لقائي إياه، وقد أقام بمالقةأشهراً - أيام إقرائي ، وأنشدني كثيراً من شعره». وكان صاحب الذيل والتكملة (ابن عبد الملك) معاصرأ للرندي ، فاستجازه ، قال: «وكتب إلي بياجازة ما رواه وألفه وأنشأه نظماً ونثراً».

أما شيخ الرندي فهو من أعلام العصر في فنون مختلفة

(١) الذيل والتكملة (بقية السفر الرابع): ١٣٧.

فأبو الحسن الدِّباج كان من أهل الفضل والصلاح، مقرئاً، محدثاً، متقدماً في العربية والأداب، ويفرض قطعاً من الشعر يجيد فيها. وهو توفي ٦٤٦^(١). وابن الفَخَار الشريسي كان عارفاً بالحديث حافظاً للفقه والأداب، وهو استُقضى بُرْنَدة، والجزيرة الخضراء، وتوفي سنة ٦٤٢^(٢). وبقية شيوخه ممن تحدثت كتب التراجم عنهم بالعلم والفضل والتقدم^(٣).

ويبدو أن الرندي تلقى علومه واستكمل ثقافته في مدينة رُنْدَة. وأنه عندما تنقل وترحل عن بلده كان قد ثبت على قدم في العلوم والفنون راسخة، حتى عرف له معاصروه فضله ومكانته.

رحلاته وتغربه عن رُنْدَة:

كانت للرندي رحلات وأسفار إلى أنحاء الأندلس الباقي في عصره، وأكثر رحلاته وأسفاره كان إلى الحاضرة «غرناطة». فقد نقل لسان الدين أنه «كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يستردد ملوكها، وينشد أمراءها. والقصيدة التي أولها:

* أواصِلَتِي يَوْمًا وها جَرَقَ أَلْفَا *

(١) المصدر السابق (السفر الخامس، القسم الأول) ١٩٨.

(٢) المصدر السابق: ١٨٥.

(٣) وانظر أيضاً الذيل والتكميلة (الخامس - الأول): ٢٤٦.

أخبرني شيخنا أبو عبد الله اللوسي الكاتب أنه نظم باقتراح السلطان، وقد أوعز إليه إلا بخرج عن بعض بساتين السلطان حتى يكملها، في معارضة «محمد بن هانئ الإلبيري»^(١).

وكانت له رحلة - أو أكثر - إلى المغرب، لا ندري متى كانت على التحديد، غير أنها نجد في جملة قصائده المنشورة في كتابه «الوافي في نظم القوافي» قصيدة يحن فيها إلى الأندلس. قال^(٢) «وما يتعلّق بذلك - يعني بباب الوصف - قولي وأنا يمْراُكش :

بِحَيَاةِ مَا ضَمَّتْ عُرْقِي الْأَرْزَارِ
بِذِمَّامِ مَا فِي الْحُبِّ مِنْ أَسْرَارِ
بِالْحِجْرِ، بِالْحَجَرِ الْمُكَرْمِ، بِالصُّفَا.
بِالْبَيْتِ، بِالْأَرْكَانِ، بِالْأَسْتَارِ
بِاللَّهِ إِلَّا مَا قَضَيْتَ لِبَائَةً
تَقْضِي بِهَا وَطَرَأً مِنَ الْأَوْطَارِ
وَتَكْفُّ مِنْ أَشْجَانِ صَبَّ يَشْتَكِي
جَحُورُ الزَّمَانِ وَقَلَّةُ الْأَنْصَارِ

(١) ومطلع قصيدة ابن هانئ:
أَيْلَتْنَا إِذَا أَرْسَلْتُ وَارِدًا وَخْفَا

وبَتَنَا نَرِي الْجَوْزَاءِ فِي أَذْنَاهَا شَنْفَا

(٢) الوافي في نظم القوافي - نسخة الرباط ص ٣٩.

بلْغَ لِأنْدَلُسِ الزَّمَانِ وَصِفَتْ لَهَا
 مَا بَيْ مِنْ أَشْوَاقٍ وَيُعِدُّ مَزَارِ
 وَإِذَا مَرَّتْ بِرُنْدَةِ ذَاتِ الْمُنْى
 وَالرَّاحِ وَالزَّيْتُونِ وَالْأَزْهَارِ
 سَلَمَ عَلَى تِلْكَ الدِّيَارِ وَأَهْلَهَا
 فَالْقَوْمُ قَوْمِي وَالدِّيَارُ دِيَارِي
 وَذَكَرَ الشَّاعِرُ لِنَفْسِهِ قَصِيلَةً فِي كِتَابِهِ رَوْضَةُ الْأَنْسِ وَنَزَاهَةُ
 النَّفْسِ^(۱) قَالَهَا بِالْعُدُوَّةِ مُتَشَوِّقًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْأَهْلِ وَالْوَطَنِ،
 يَقُولُ فِيهَا:

يَائِسِيمًا هَبَّ مِنْ أَنْدَلُسِ فَتَلَقَّتْ طَيَّبَةُ رِيحُ التَّعَامِي
 مَا امْتَرَى نَاسِيقُهُ لَمَّا سَرَى مَا فَضَّ عَنِ الْمَسْكِ الْخِتَامِ
 أَهُّ مِنْ شَوْقِي لِقَوْمٍ إِلَّا جَرَى دَمْعِي سِجَاماً ذِكْرُهُمْ لِقَوْمٍ مَا جَرَى
 وَذَكَرَ الرُّنْدِيُّ خَبَرَ اجْتِمَاعِهِ بِالشِّيخِ الْفَقِيْهِ أَبِي عَلِيِّ الْقَصْرِيِّ
 بِمَدِينَةِ سَبَّةِ وَمَذَاكِرَتِهِ إِيَاهُ فِي ضَرُوبِ مِنَ الْأَدَابِ^(۲).
 جُوانِيهِ وَاهْتِمَامَاتِهِ:

تَنَوَّعَتْ جُوانِيهِ الرُّنْدِيِّ وَاهْتِمَامَاتِهِ، وَتَعَدَّدتْ. فَهُوَ - كَمَا
 ظَهَرَ مِنْ تَرَاجِمِهِ وَمِمَّا تَرَكَ مِنْ مَوْلَفَاتِهِ، وَمَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ

(۱) رَوْضَةُ الْأَنْسِ: ۱۷.

(۲) الْوَافِيُّ فِي نَظَمِ الْقَوْافِيِّ (النَّسْخَةُ التِّيمُورِيَّةُ): ۱۲۲.

أسماء بعض مؤلفاته الأخرى - كان أدبياً، فقيهاً، مشاركاً. وامتدت اهتماماته ليشمل معظم جوانب الثقافة الأدبية والدينية لعصره. فقد كان شاعراً، وأديباً مؤلفاً، وناقداً. ومن جهة ثانية كان فقيهاً، محذقاً فرضياً، مقدماً في رجال القرن السابع المعدودين - فهو - على الرغم من تعدد اتجاهاته، واتساع جوانبه - ذو مكانة خاصة في معظم تلك الجوانب التي طرقها.

شخصية الرُّندي :

تجتمع لدى الدارس من أخبار الرُّندي ومما يجده في كتبه صورة واضحة تقريراً لأخلاقه وتدينه، ومكانته في عصره وعلاقاته بمعاصريه، واتجاهاته. وكانت الأوصاف التي أسبغها عليه ابن الزبير، وابن عبد الملك المراكشي ، وابن الخطيب كافية لإعطائه صورة الأديب الفقيه الشاعر، ذي المكانة المرموقة في عصره. ففي ترجمة ابن الزبير له أنه كان بالجملة معدوداً في أهل الخير، وذوي الفضل والدين. وعند بن عبد الملك أنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس ، بارع التصرف في منظوم الكلام ومتshore ، فقيهاً، حافظاً، فرضياً مُفتناً في معارف شتى ، نبيل المنازع ، متواضعاً، مقتضاً في أحواله».

وقد كان الرُّندي ممن يستطيع أن يُحسن الصلة بينه وبين أهل الفكر، وأصحاب الدولة من الأمراء الحكام والوزراء

المتنفذين، ومن كان في ساحتهم. وساعدته علمه وشاعريته على تقريرهم له واستنشادهم من شعره.

وهو جَمِعٌ إِلَى هَذِهِ الصَّفَاتِ الْخَلُقِيَّةِ الطَّيِّبَةِ وَرَعَا وَتَدِينَا وَمَرَاقِبَةً تَشَهِّدُ بِهَا تَرَاجِمَهُ، وَقَطْعَ بَاقِيَّةٍ مِنْ أَشْعَارِهِ. فَمِنْ شِعْرِهِ فِي غَرْضِ التَّوْحِيدِ^(١) قَوْلُهُ :

ما بِالْأَنْسَانِ نَفْتَرُ بِالْأَذْهَانِ
وَنَفِيقُ كَيْ نَذْرِي أَكْلَ عَلَهُ
وَنَرُومُ مَعْرِفَةً إِلَّاهٍ وَإِنَّمَا
نَبْغِي الْكَمَالَ بِغَايَةِ النُّفْصَانِ!
لَوْ شَاءَ كَانَ عَلَى نَظَامٍ ثَانِ
مُنْعَتْهُ قَوَّةُ عَالَمِ الإِنْسَانِ
إِلَّا إِلَّاهٌ وَكُلُّ شَيْءٍ فَإِنَّ

وَلِهِ مِنْ قَطْعَةٍ أُخْرَى :

أَشَارَ إِلَيْكَ جُمِيعُ الْوَجُودِ بِأَنَّكَ أَوْجَدْتَهُ مِنْ عَدْمٍ
وَقَامَ بِأَمْرِكَ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَلَوْلَاكَ يَا سَيِّدِي لَمْ يَقُمْ^(٢)
صَلْتَهُ بِدُولَةِ بَنِي نَصْرٍ :

سَبَقَ الْقَوْلَ إِنَّ الرُّنْدِيَ وُلِدَ فِي أَوَّلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ. فَهُوَ نَشَأَ وَشَبَ فِي ظَلِّ أَوَاخِرِ دُولَةِ الْمُوْهَدِينَ، وَشَهَدَ الاضْطَرَابَاتِ

(١) روضة الأنس ونزهة النفس : ٥ .

(٢) المصدر السابق : ٤ .

المريعة التي مَرَتْ على الأندلس بعد هزيمة العقاب الشنيعة سنة ٦٠٩، وهلم جراً إلى أن استقر الحال بالأندلس في القسم الباقي تحت ظل بنى نصر المعروفين ببني الأحمر في مملكة غرناطة. وكانت (رندة) في جملة المدن الباقة.

ويظهر لي أن اتصال الرُّندي بالأمير النصري لم يكن قبل استقرار الأمور له بعد سنوات من الكفاح لوقف المد الخارجي الطامي.

وتدل القصائد الباقيات من شعره في بني نصر على أنه كان لهم بمثابة شاعر القصر ومناسباته المختلفة. فهو يهنيء بالأعياد والانتصارات، ويشارك في المواسم والمناسبات. وهو يرثي من يُتوفى من الأسرة أيضاً.

وطَرَّ الرُّندي كتابه (روضة الأنس ونَزَهَةُ النَّفْسِ) باسم الأمير النصري أبي عبد الله محمد بن نصر^(١). فهو الشاعر المعتمد، والثقة الذي يسمحون له بالدخول إلى القصر الملكي ومتزهاته، فقد ذكر في الإحاطة أن الأمير أدخله الحديقة الملحة بالقصر وطلب إليه ألا يخرج منها قبل إتمام قصيده في معارضه محمد بن هانىء الإلبيري^(٢).

(١) روضة الأنس: ١. والأظهر أنه قدمه للأمير محمد الأول.

(٢) الإحاطة (ترجمة الرندي).

وقد لخص لسان الدين بن الخطيب علاقته ببني نصر بقوله في الإحاطة إنه كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يستردد ملوكها وينشد أمراءها^(١). ويكون الرندي بهذا شاعر مدح ، ومناسبات ، اختص بالبيت النصري ، فشهد عهد الأمير الأول محمد ، وعهد ابنه من بعده محمد الفقيه إلى أن توفي في زمانه .

علاقته بأدباء عصره :

كان من الطبيعي لشاعر - اتصل بالقصر اتصالاً مباشراً - ومؤلف متعدد المواهب ، وناقد أدبي متصدر لهذا الفن ؛ أن تكون له صلاتٌ وثيقةٌ بعدد من أدباء عصره ، وتكون بينه وبينهم مراسلات وندوات ولقاءات . والمعلومات - على كل حال - عن هذه الناحية في تراجمme الباقية قليلة . غير أنها استفادنا الكثير من الأخبار والملاحظات الشخصية العارضة التي تلقى المطالع في كتابي الرندي الباقيين : «الوافي في نظم القوافي» ، و«روضة الأنس ونرفة النفس» .

وحدثنا أبو جعفر بن الزبير المحدث المؤرخ الأديب أنه تكرر لقاوه أبا الطيب الرندي بمالة ، وأنه سمع من أشعاره الكثير^(٢) .

(١) الإحاطة (ترجمة الرندي) .

(٢) الإحاطة - نقلأ عن صلة الصلة (ترجمة الرندي) .

وطلب ابن عبد الملك المراكشي إجازته^(١) فلبى رغبته،
ويُبعث بها إليه.

وكانت بينه وبين بعض أدباء غرناطة مسامرات وصلات
ومناقشات. فمنها ما ذكره في الواقفي^(٢): «كتب إلى صاحبنا
الوزير الأديب أبو العباس بن بلال الجزيري رحمة الله»:

المِمْ إِذَا شَتَّ تَحْظَىْ بِصَالِحٍ وَشَرِيفٍ
بِصَالِحٍ بْنِ يَزِيدٍ بْنِ شَرِيفٍ
فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَهْلًا بِيَرِ سَرَّنِي وَجَلَّ لِي
مَا شَتَّتَهُ مِنْ رَفْعَةٍ وَجَلَالٍ
خُسْنُ اطْرَادٍ فِي قَرِيبٍ بَاهِرٍ
نَظَّمْتُ بِهِ الْأَسْمَاءَ نَظَمٌ لَالِ

وله مراسلة شعرية أخرى مع الوزير الجزيري^(٣).

ونقل مختارات من أشعار أصحابه في الواقفي، وعرفنا
بصداقة لهم وصلته بهم مثل الفقيه أبي الريبع بن حبيب،
والفقيه أبي عمرو بن أبي العافية. كما ذكر أبو الحجاج بن
الشيخ المالقي وابنه بما يوحى أنه يعرفهما معرفة مباشرة.

(١) المرجع السابق.

(٢) الواقفي في نظم القوافي (النسخة التيمورية: ١٧).

(٣) المرجع السابق: ١٢٤.

وأورد قطعةً لنفسه، وعقب بمعارضة معاصر له لتلك القطعة، وهو الكاتب أبو بكر النجاشي الإشبيلي^(١). وتحدث عن مذكرة بينه وبين بعض الإخوان^(٢) في قضايا أدبية ولكنه لم يستمِمْ.

مؤلفاته:

بقيت - إلى أيامنا هذه - مجموعة من آثار الرندي، بينما نقف على أسماء مؤلفات وأثار أخرى لا ندرى أفي الصائع هي لا رجعة له، أم أنها في بطون الخزائن. وكتبه التي نعرفها أو نعرف لها اسمًا هي :

- ١ - الوافي في نظم القوافي . وهو كتاب نصي جامع ، منه نسخ في القاهرة والرباط وليدن وغيرها [يصدر في سلسلة دراسات أندلسية].
- ٢ - رهبة الأنس ونزة النفس ، وهو كتاب ثقافة جامع شبيه بكتب المعارف العامة كعيون الأخبار والعقد وأشباهها. ومنه نسخة ناقصة في مكتبة خاصة بالمغرب .
- ٣ - ديوانُ شعر ، وهو مفقود ، منه نقول مشوّثة في كتبه ، وفي كتب الترجم وتأريخ الأدب الأندلسي . قال ابن الزبير إن

(١) الوافي (نسخة الرباط ٣٣).

(٢) (المراجع السابق : ٣٤).

كلامه - ثراً ونظمًا - مُدوّن^(١).

٤ - وله (مقامات). نعرف اسمها فقط، وهي من المفقود^(٢).

٥ - كتاب في الفرائض^(٣). وقد شرحه الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي الشهير بالقلصادي^(٤).

٦ - جزء على حديث جبريل^(٥).

٧ - تأليف في العروض^(٦).

٨ - قال ابن الزبير أيضًا «وله تصانيف أدبية وقصائد زهدية» وسنعرض للموجود من كتبه بالنقد والتعريف.

* * *

(١)، (٢)، (٣) نقلًا عن الإحاطة «ترجمة الرندي».

(٤) نفح الطيب ٢، ٦٩٤.

(٥)، (٦) الإحاطة «ترجمة الرندي».



الفصل الثالث

أدب الرندي

سبق القول في ترجمة الرندي إنه كان أدبياً، شاعراً، ناقداً، مشاركاً؛ له اهتمامات بعلوم شتى. وسنعرض في هذا الفصل لدراسة جوانبه التي اشتهر بها، ووصلت إلينا آثار له فيها، وهي : شعره، ونشره، وأراءه النقدية، على وجه الخصوص.

الرندي شاعراً :

١- كانت الحركة الشعرية في القرن السابع الهجري استمراً لما كان في القرن السابق عليه من النشاط، وغزارة الإنتاج، ووفرة الشعرا، وعلو الطبقة. واتسم الشعر بالنفس القوي والأفق المشرف؛ فهو لم ينحدر انحداراً مماثلاً لضعف الأحوال العامة في البلاد. وكانت الأندلس لا تزال تنجذب الشعرا المتقدمين كابن الأبار، وابن سهل الإشبيلي، وحازم القرطاجي، ومن وصلت إلينا دواوينهم الشعرية، ومثل أبي البقاء الرندي وابن سعيد المغربي الأندلسي من وصل إلينا قدر صالح من أشعارهم.

وكان ما يزال في الأندلس - في أول القرن ، وبعد استقرار الأمور لابن الأحمر في غرناطة - من يقدر الشعر، ويُثبّت عليه، ويشجع أصحابه. وكان بعض أولي الأمر من الخلفاء

والوزراء والحكام يقرضون الشعر قليلاً وكثيراً، ويشاركون في
الحركة الأدبية.

وكانت هناك حوافز مختلفة بحسب اختلاف الظروف
وتنوعها وتشعبها في هذا القرن الشديد الاضطراب تدفع
بالمشاعر إلى نظم الشعر وإياديه ثمرات القرائح وخليجات
العواطف؛ سواء أكان ذلك مما يخص المشاعر أنفسهم وفي
حياتهم، أم كان يخص الأمة في أحوالها المضطربة وظروفها
القاسية.

وقد كان عدد كبير من كتاب الأمراء يقرضون الشعر^(١)،
ويقدمونه بين يدي مخدوميهم، فكثر لهذا شعر المديح
والمناسبات؛ وسيكون هذا ظاهرة بارزة في القرن التالي حين
نجد رؤساء الكتاب جمِيعاً من المشاعر، وبعضهم يقف في
الشعر على قدمين راسختين.

٢ - وبعد أن استقرت الأمور في غرناطة - وما حازوه من
الأندلس في نطاقها - اتخذوا لأنفسهم رسوم الملك، وأبهة
السلطان، واتخذوا الكتاب والمحاجب والوزراء. وكانت
الدولة تنعم بين الفينة والأخرى بهدوء نسبي يسمح للأمراء
النصريين بالالتفات إلى البنيان وال عمران، والأخذ بأسباب

(١) راجع ثبت كتاب بني الأحرر وزرائهم في اللمحات البدوية للسان الدين بن الخطيب «طبعة الشيخ محمد الدين الخطيب» - القاهرة.

الحياة الملكية. وكان لا بد لدولة ناشئة - كهنة - من أن تُفيد من الخبرات والمواهب التي نبت في ظلالها. وهذا حصلت الصلة بين الرُّندي وبين بنى نصر.

٣ - لا نجد بين أئدينا من باقي شعره ما يدل على اتصاله في مرحلة شبابه الأولى ببعض الأمراء من الموحدين - ومدعى الخلافة ومتلبيها - أو ببعض الشوار والمتزرين في أرجاء الأندلس بعامة أو في رُندة بخاصة. فقد كان في نحو الخامسة والعشرين من عمره عندما قام محمد بن هُود بدعوته، وبأيته معظم أطراف الأندلس مدة من الزمن، وانقضت دعوته بوفاته وهو في الخامسة والثلاثين. وقد ولَّ ابن هُود على مدينة رُندة سنة ٦٣٠ أديباً شاعراً هو أبو بكر بن عبد العزيز الشهير بابن صاحب الرد. وكان له دور بارز في الخروج بعد ذلك في قرطبة وتعيين ابن عمه الباجي (٦٣٠ - ٦٣٢) مخالفًا لابن هُود ومستقلًا بالأمر. وكانت سنُّه بين العشرين والرابعة والعشرين حين احتمم الخلاف بين المتطلعين إلى الخلافة من الموحدين. فبعد مبايعة عبد الواحد (المخلوع) سنة ٦٢٠ بمراكش قام العادل بالأندلس. وبعد مدة يسيرة خرج أمير آخر هو المعروف بالبياسي فدعا لنفسه وتحالف مع دول إسبانية، وكان يسلمهم البلاد والمحصون، حتى قضى عليه أهل قرطبة ٦٢٤. ولكن أبا العلاء (المأمون) الموحدي قام - بعد سفر أخيه العادل إلى مراكش أميراً - فدعا لنفسه في الأندلس.

ونقل في (الوافي) أبياناً في مدح الوزير أبي بكر بن أخيه لم يزد على أن قال فيه «من أهل بلدنا» يعني زُندة.

وقد أورد الرندي ذكر خليفتين من الموحدين بمناسبة تهنئة شاعر معاصر له للرشيد الموحدى في توليه الخلافة الموحدية بمراكم وتعزيته بوفاة والده المأمون، ولكنه حديث عارض لا يدل على علاقة تستخرج بهم، قال: «ولم أر لأحدٍ متقدم أو متأخر (في اجتماع تهنئة وعزية) كقول بعض أهل عصتنا يهنىء الرشيد بالولاية ويعزيه بأبيه المأمون:

هَنِئَا وَإِنْ كُنَا لَحَسْنِ الْعَرَزا أُولَى
بِمَلِكِ الَّذِي أَسْتَوْلَى وَهُبَلِكِ الَّذِي وَلَى

وليس بين يدي ما يرجع صلته بالموحدين، صلة شاعر مادح بدولة مستقرة وأمير ممدوح.

وقد مر في الفصل الأول أن ابن الأحمر قام سنة ٦٢٩ بدعوته وجاذب ابن هود أطراف البلاد حتى خلا له الجو بوفاته في المرية عند واليها من قبله ابن الرُّميسي.

وشعر الرندي الباقى يدل على اتصاله ببني الأحمر بعد مرحلة تكوين الدولة الجديدة، وثبتت إطاراتها.

٤ - ويبرز الرندي في ظلال بني الأحمر شاعر بلاط، مداعاً، ذا صلة وثيقة بالدولة الفتية وأمرائها للمحبين للشعر،

المطلعين إلى قصائده فيهم، وأشعاره التي ينظمها في الأغراض الأخرى.

وهو شاعر مكثر، غزير الإنتاج، سهل العطاء، حاضر البديهة، وقد كان شعره مدوناً (مجموعاً في ديوان)، ولكننا لا نعرف إلى الآن في المكتبات المشهورة ديوان شعر له. وجوانب شعره متعددة، وأبرز أغراضه الشعرية: المدح، وشعر الغزل، والرثاء، - ومنه رثاء المدن والممالك - والوصف، والحكمة. وله مشاركة في أغراض شعرية أخرى. وقد نبه ابن الزبير إلى إجادته في غرضي المدح والغزل، وهي ملاحظة دقيقة.

أغراض شعر الرندي:

● المدح: يبرز غرض المدح في شعره لوفرة إنتاجه فيه، وارتباطه مدة طويلة بالباط النصري. وهو يذكرنا بشعراء المدح التقليديين الذين أخلصوا الولاء لدولة من الدول، واستمروا على ذلك الولاء إلى أواخر حياتهم. فهو اتصل بالأمير النصري الأول محمد بن يوسف (ت ٦٧١) وبابنه محمد الفقيه (ت ٧٠١) هـ فمدحهما، وتردد على غرناطة طويلاً في عهدهما.

ويتناول شعر المدح عنده القيام بمهمة شاعر الباط الذي لا يغادر مناسبة دون أن يقول فيها شرعاً ملائماً؛ فهو رفع

قصائده إليهم في المناسبات، والأعياد، والمواسم. واتصل غرض المديح - هنا - بما دعاه في كتابه الواقي: التهاني، حين أفرد له بابا مستقلاً. وتتجدد في شعره قصائد في تولية ابن الأمير ولادة العهد، وفي إعذار بعض أولادهم، وفي المديح عامه. وكأني بالشاعر يقد على غوناظة في أوقات ومواسم بأعيانها لا يدعها تفوتها، إضافةً إلى وفادات العارضة، واستدعاءات القصر لأغراض مختلفة.

وله قصيدة مطولة قالها معارضه لقصيدة المتنبي:

أَجَابَ دَمْعِيِّي وَمَا الدَّاعِيُ سِوَى طَلْلٍ
دَعَا فَلَبِّاهُ قَبْلَ الْخَيْلِ وَالْإِبلِ

وقد أنشد الرُّندي قصيَّدَتَهُ «لَمَا بويع بالحضورة النصرية بولادة العهد الأمير المعظم أمير المسلمين أيده اللهُ واقترن بذلك مولد ابنه الأمير المعظم أسعده اللهُ...»^(١) وقدم لها بمطلع غزلي رائق، ومن الغرض فيها:

يَا يَوْمَ سَعْدِ كَانَ الْعِيدَ عَادَ بِهِ
فَالنَّاسُ فِي مَرْحٍ وَالْدَّهْرُ فِي جَذَلٍ
شَاهِدُهُ فَرَأَيْنَا الْأَرْضَ قَدْ بَهَرَتْ
وَالشَّمْسُ قَدْ سَرَّتْ وَجْهًا مِنَ الْخَجْلِ

(١) الواقي في نظم القوافي: ٣٧ «النسخة التيمورية».

وَلِلْطَّبُولِ بِهِ خَفْقٌ يُسَاجِلُ
خَفْقُ الْبَنْوَدِ عَلَى الْخَطْبَيْةِ الدُّبْلِ
وَكُلُّ أَشْوَسَ سَاجِي الْطُّرْفِ مِنْ أَدْبِ
يَهُوي لِلثَّمِ يَدِ أَشْهَى مِنَ الْأَمْلِ
وَيَجْتَلِي غَرَّةً بِالْبِشَرِ مُشَرِّفَةً
كَمَا تَجَلَّتْ إِيَّاهُ الشَّمْسِ فِي الْحَمْلِ
فَهُوَ يَصْفُ الْمَشْهَدَ وَصَفَا تَفْصِيلِيَاً يَبْيَنُ كَيْفَ احْتَفَلَتْ
الْدُولَةِ (رَسْمِيَاً) بِتَوْلِيَةِ الْأَمْيَرِ وَلَا يَةِ الْعَهْدِ بَيْنَ أَصْوَاتِ الْطَّبُولِ
الْمُجْلِجَلَةِ وَخَفْقِ الرَّاِيَاتِ فِي أَيْدِي حَامِلِيهَا فِي عَرْضِ بَدِيعِ.
وَتَسْتَمِرُّ الْقُصْبِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُشَيِّدَ بِالْأَمْيَرِ الْعَتِيدِ، وَيَلْتَفِتُ إِلَى
وَالَّدِ (الْحَاكِمِ) لِإِظْهَارِ مَآثِرِهِ وَصَفَاتِهِ، وَبِيَانِ عَدْلِهِ فِي الرُّعْيَةِ،
وَجَهَادِهِ فِي الْعَدُوِّ، وَتَمْكِنَتْ مِنَ السُّلْطَانِ، وَوُصُفَّ تَعْلُقُ النَّاسِ
بِهِ حَاكِمًا نَاجِحًا. وَفِي آخِرِ الْقُصْبِيَّةِ:

ابن الْهُمَامِ الَّذِي لَهُ حُلَّى حَسْنَتْ
بِهَا الإِمَارَةُ حُسْنَ المَدْحِ بِالْغَزْلِ
وَمِنْ لَهُ كَرْمٌ رِيشَ الشَّنَاءِ بِهِ
فَطَارَ حَتَّى سَرَى فِي الْأَرْضِ كَالْمُثْلِ

وَتَجَدُّ فِي مَدَائِحِهِ الْمَعْانِي الْمَطْرُوحةُ عَادَةً فِي هَذَا الْغَرْضِ
فَإِذَا كَانَ الْوَالَدُ أَسْدًا فَالْأَبْنُ شَبِيلُ، وَيَدِ الْأَمْيَرِ بَحْرٌ فِيَاضٌ عَنْدَ
الْجُودِ، وَسَيفِهِ قَاطِعٌ بَنَارٌ مُخْضَبٌ بِالدَّمَاءِ فِي الْحَرْبِ، وَنَسْبُ

النصرين في بيوت الشرف العربية^(١)). وكان الشاعر يجتهد دائمًا في أن تكون شخصيته الشعرية ظاهرة على محورين: أحدهما في حسن صياغة العبارة، وثانيهما في جدة تناول المعاني والقدرة على الغوص وراء الصور المبتكرة.

وله من قصيدة مدحية يصف فيها جيشبني الأحمر، فيه
الأمراء منهم يقودونه ويخوضون به المعركة:

وَكَتِيبَةٌ بِالْأَدَارِعِينَ كَثِيفَةٌ
جَرَّتْ ذُيولَ الْجَخْفَلِ الْجَرَارِ
رَوْضُ الْمَنَابِيَا قَضُبَهَا الشَّمْسُ الَّتِي
مِنْ فَوْقِهَا الرَّايَاتُ كَالْأَزْهَارِ
فِيهَا الْكَمَاءُ بَنُوا الْكَمَاءَ كَأَنَّهُمْ
أَسْدُ الشَّرِّى بَيْنَ الْقَنَا الْخَطَارِ
مُتَهَلَّلِينَ لَدَى الْهِيَاجِ كَأَنَّمَا
خُلِقُتْ وُجُوهُهُمْ مِنَ الْأَقْمَارِ
مِنْ كُلِّ لِيَثٍ فَوْقَ بَرَقٍ خَاطِفٍ
بِيَمِينِهِ قَدْرُ مِنَ الْأَقْدَارِ
مِنْ كُلِّ ماضٍ يَنْتَضِيْهِ مِثْلُهُ
فَيَضُبُّ آجَالًا عَلَى أَغْمَارِ

(١) الوافي في نظم القوافي: ٤٢ «النسخة التيمورية».

لْبُسُوا الْقُلُوبَ عَلَى الدُّرُوعِ وَأَشْرَعُوا
بَاكْفُهُمْ نَارًا لِأَهْلِ النَّارِ
وَتَقدَّمُوا وَلَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ
حَنْقَ الْعِدَى، وَحَمِيَّةُ الْأَنْصَارِ

فالمعنى المدحية مما لا يستغربه القارئ أو يستجده دائمًا، ولكن الانتباه يلتفت إلى الصياغة الجيدة، والصورة الجديدة، التي تعود بك إلى مدرسة ابن خفاجة التصويرية والتعبيرية.

وتجد الشاعر مقتدرًا على الوصول إلى نفس المخاطب (من الممدوحين) وبلغ ما يريد تبليغه من فكرة أو رأي أو طلب. وهو على كل حال يلحق بشعراه المدحى الذين يقبلون الأعطيات والهدايا، وإن لم نجد له طلباً صريحاً للعطاء، ولكنك تجد مثل قوله:

إِذَا مَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِحُرْرٍ كَفَاهُ لَثُمَّ كَفَكَ، وَالسَّلَامُ!
أو قوله في قطعة أخرى:

وَلَئِنْ رَجَوْتُ فِيَانَ مِثْلَكَ يُرَتَّجِنِي
وَلَئِنْ سَأَلْتُ فِيَانَ مِثْلَكَ يُسَأَلُ

فعلى الرغم مما يظهر من الروح التكسيبة، فإنك تحس بأن الأمر يعود هذا إلى أهداف أخرى كثبيت المكانة

عندهم ، والاحتفاظ بالوجاهة ، وإبراز الشاعرية . . .

وقد أتى الشاعر قدرة على حسن مخاطبة النساء ، والممدوحين بعامة مما يبنيه عن شخصية شاعر متمنك ، دمث ، يحسن التأني ، ويعرف المداخل إلى الأمور والمخارج منها .

ولا بد - ونحن نستعرض شعر المديح عند الرندي - من أن نقف عند عدد من الملاحظات التي تبدو للدارس من خلال علاقة الشاعر بالممدوحين ، ومن خلال شعر المديح نفسه في مقاصده ، ومعانيه ، وشكله ؛ وما يتصل بذلك من أمور .

فالعلاقة بين الرندي وبين النساء النصريرين ورجال دولتهم المعدودين تمثل ما نعرف من علاقات الشعراء بحكام الدول وأمراء المناطق فيما سبق عند المشارقة والأندلسين ، فالدولة في حاجة إلى الشاعر الذي يتحدث عنها ويزدعي المآثر والمناقب ويقوم بدور «أجهزة الأعلام» وللشاعر مقاصده أيضاً .

ولا ننسى أن الرندي في تقريره إلى النصريرين ومدحه لهم كان يعكس اتجاهاً سياسياً لدى أهل مملكة غرناطة . فقد كان

استقدام ابن الأحمر وتأميره برغبة من الأهالي وعن رضى
تام.

وتشيع في قصيدة الرُّندي المدحية معاني المديح المألوفة
في الشعر العربي ، بالإضافة إلى الجوانب والإضافات
الخاصة التي تلونها بنون أندلسى ، غرناطي أحياناً . ومن أهم
الأمور التي يطرحها شعر المديح مشكلة السلطة (وهي في يد
بني نصر برجوا الجمهرة) قضية العدو (إذ حلها الأمراء
النصريون بالحرب حين الاقتضاء ، والسلم - حين يكون ذلك
أجدى - بحسب نظره) يقول مثلاً :

وَهُمْ مِنْحُوا الْجَزِيرَةَ مِنْ حَمَافَمْ جِوارًا لَا يُذْمُ لَا يُضَامْ
فَمَنْ حَرْبٌ تَشِيبُ لَهَا النَّوَاصِي وَمَنْ سِلْمٌ : تَحِيَّتُهُ سَلَامٌ !

قضية الأهلية لاستمرار السلطة في الأسرة النصرية :
(ولاية العهد). بالإضافة إلى ركائز المديح الأثيرة من كرم
المحتد ، والجود ، والباس في الحرب ، ونشر العدل في
الرعاية ، إلى غير ذلك من معان .

ولا يحس قارئ شعر المديح عنده بأنه يشبه شاعراً
متكتساً يتهاوى على مطامعه الشخصية كبعض صور التكسب
عند عدد كبير من شعراء دول الطوائف . ويتصل بهذا المعنى
ما تجده من اقتراب شعر المديح من الإخوانيات اقتراباً
واضحاً . ولعل الخط الواصل بين المديح والإخوانيات هو

المنطقة الوسطى التي سماها (التهاني) مما يخص المناسبات الشخصية، والاجتماعية المختلفة، كالتهنئة بالإبلال من مرض، أو العودة من سفر، أو الاحتفال بزواج... الخ. وقد اتبه الرندي في (الوافي) إلى أن هذا الباب مُستَغْرِقٌ عند الشعراء في خلال الأغراض الأخرى. وكان من الطبيعي الآخر يفرده النقاد في رؤوس الأغراض الشعرية.

فمن ذلك «قوله في تهنئة بقدوم من سفر»:

سالليلة الأنسِ كم أذَّيْتُ منْ أَمْلِ
أشهَنْ وَأَعْذَبَ مِنْ أَمِّنْ عَلَى وَجْلِ
وَكِمْ تَعَلَّتْ بِاللُّقْبَا عَلَى شَغْفِ
وَفِي التَّعَلُّلِ مَا يَشْفِي مِنْ الْعِلَِّ
مَا زَلْتُ يَسْطُنِي وَجْدِي وَيَقْبُضُنِي
طَوْرَا وَيَشْفُعُ لِي شَوْقِي إِلَى خَجْلِي
حَتَّى بَلَغْتُ مُنْيَ مَا كَنْتُ أَحْسَبُهَا
وَمِنْ أَلْذِ الْمُنْتَهِي حُبُّ بِلَا عَذْلِ
وَلَا كِيمِ لِقَائِي لِلوزِيرِ أَبِي
بَكْرٍ وَقَدْ عَادَ عَوْدَ الْحَلِيِّ لِلْعَطْلِ
لِلَّهِ مِنْ وَافِدٍ سَرَّتْ وَفَادَتْهُ
مَبَارِكُ السَّعْيِ فِي حَلِّ وَمَرْتَحِلِ...
وَقَدْ عَرَفْنَا مِنْ أَسْمَاءِ الْمَمْدوْحِينِ فِي شِعْرِهِ الْبَاقِي لِدِينِا

مجملأً (الأول) والأمير محمدأً الفقيه (الثاني) وأبا عمرو بن المرابط، وأبا بكر بن يحيى.

وقد جعل الشاعر قصيدة المديح عرضة لأغراض أخرى. فأكثرها يبدأ بالغزل، وهو يستغرق عادة قسمًا هاماً من القصيدة. وقد يخرج في أثناء المديح، ولأدنه سبب، إلى استطالة وصفية تلائم الحال أو تصل بمعنى من معاني المديح المطروحة. وكأن الشاعر بهذا يريد أن يخفف من حدة الخطابية، أو المباشرة، أو الاستغراف وراء الغرض المدحى.

وتُظهر لك القصيدة المدحية إعجاب الممدوحين بشاعرهم ونقمتهم به؛ إذ يقتربون عليه معارضه شعراء يعينونهم، وقصائد يختارونها، من الشعراء الفحول والقصائد المشهورة. وهي تظهر من جهة أخرى مقام الشاعر عند نفسه. فكثيراً ما كان يختتم قصائده بذكر شاعريته وإتقانه صنعته، كقوله:

وخذ إليك حلٌّ فصلتها حلاً
الفضل فيها لتلك المكرمات ولِي!

وقوله في ، من قصيدة أخرى:

خُذها إليك أبا بكر مهشة
أزهى من الحُسن في أبهى من الحل

عذراء قد بَانَ فِيهَا عُذْرٌ حَاسِدَهَا
إِذْ غَازَ الْمَدْحَ فِيهَا رَقَّةُ الغَزْلِ

وقد بقي غرض المديح - في أغراض الشعراء الأندلسين - متقدماً في القرن السابع. وظهرت طبقة من الشعراء في القرن الثامن لا تقل مقدرة وأهمية، ومن يتوجه إليهم الحديث في مجال آخر إن شاء الله.

الغزل

تبه معاصره الرندي إلى أنه برع في غرض الغزل - بالإضافة إلى المدح -. وهي ملاحظة صحيحة، ويُحَسَّنُ القاريء أن الشاعر يجوده ويترسل فيه.

ويشغل الغزل حيزاً واسعاً في شعره، فهو أفرد له القصائد والمقطوعات، وجعله استهلالاً لبعض الأغراض الأخرى، وبخاصة منها المديح.

وأول ما يلاحظه قاريء شعره الغولي أنه شاعر مقتدر على تناول الموضوع، واسع الباع فيه، خبير بالمعاني الغزلية، مستحضر للألفاظ المناسبة الملائمة. ويعطيك شعره صدق المحب المدنس، والمبروك العارف، وتعانق فيه العبارة الرشيقه الأنثيقه مع المعاني اللطيفه الرقيقة، وتتجتمع له حرارة شعراء البداوة الشفافة الساذجه إلى أناقة شعراء الحضارة البادحة المترفة.

ولا يغيب عنك - وأنت تقرأ شعره هذا - ما فيه من لمسات إنسانية عميقة، وقدرة مكينة على التغلغل إلى الأعمق؛ في استشراف لما فيه واستشفاف دقيقين. ويلحق بذلك ما تشهده من قدرته على تصوير المواقف، سواء أطوال في التعبير أم اجتنأ واختصر: فمن شعره الغزلي قوله:

وإنما ضرّني وما انتفعا وعندما لذ وصله قطعا كأنه ما رأى وما سمعا! لم يترك الدهر فيه لي طمعا يرجع لي اليوم كيما رجعا!	قطع قلبي بصدّه قطعا وغرّني أولاً بوصلته ومرّعني لما شكت له واكبدي! لو تُفيد (واكبدي) يا ليت قلبي الذي وهبْت له
---	--

والشعر الغزلي الذي بين أيدينا من تراثه يوحى بأنه غزل يمكن أن يوصف بأنه (عام). ذلك أنك لا تجد فيه امرأة بعينها أو اسمًا مقصودًا. ولكن هذا لا يُغيب الإحساس بصدق التجربة وأصالة الشاعرية.

ولا تكاد تجد للشاعر قصيدة غزلية يخلص فيها الحديث للغزل وحده، فإنه سرعان ما يخرج عن الموضوع الأصيل إلى موضوعات جانبية أخرى، تتصل لا شك بروح القصيدة وتشتبك مع مقصدها، ولكنها تشعرك بأن القصد الغزلي في القصيدة مشوب بتطرizات جانبية تلطف من حرارته، وتظلل نصاعته.

ـ والم الموضوعات الجانبية التي تُدخل الغزل، هي من نوع مشاكل، مُساعف. كالوصف بعامة، أو وصف الخمرة بخاصة. وقد يكون الخروج عن الغزل إلى الوصف مقصوداً، لهدف آخر هام عنده، هو الوصول بين أجزاء القصيدة وغرض المديح كما في قصيده المدحية:

الشَّام شَفَّ عَنْ وَرْدِ نَدِ
أَمْ عَلَى الْأَزْهَارِ مِنْ حُلْتَهَا
بَذَرْتَمِ فِي قَضِيبِ أَمْلَدِ
بَأْبَيِ لِيَنِ لَهُ لَوْأَنَهُ
نُقْلَتْ عَطْفَتُهُ لِلْخَلِدِ
وَلَا وَالْحَاظِ لَهَا سَاحِرَةٌ
نَفَثَتْ فِي الْقَلْبِ لَا فِي الْعُقَدِ
لَا طَلَبَتُ الثَّأْرَ مِنْهَا ظَالِمًا
وَأَنَا الْقَاتِلُ نَفْسِي بِيَدِي
نَظَرْتُ عَيْنِي لِحَيْنِي نَظَرَةً
أَخَذْتُ رُوحِي وَخَلَّتْ جَسَدِي

ثم يخرج إلى وصف الخمرة:

هَاتِهَا بِاللَّهِ فِي مَرْضَاتِهَا قَهْوَةٌ فِيهَا شَفَاءُ الْكَمْدِ
عَصِيرَتْ بِاللَّطْفِ فِي عَصْرِ الصَّبَا
فَرَمَتْ بِالْمَسِكِ لَا بِالرَّبِيدِ
ـ وَهِيَ مُثْلُ الْبَارِقِ الْمُتَقَدِـ
دُرَّةٌ ضَمَّتْ عَلَى يَاقُوتَةٍ
أَمْ لَعِينَ فِيهِ ذُوبُ عَسْجَدِي
ـ مَا دَرِي مُدِيرُهَا فِي كَاسِهَا
سَقْنِي غَيْرَ مُلِيمٍ يَاقُوتَةٍ
ـ حَنْقِي الرَّأْيِ وَالْمُعْتَقَدِ
لَا أَرِي بِالسُّكْرِ إِلَّا مِنْ هَوَى
أَوْ هِبَاتِ الْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ... .

ـ فهو يمزج في الغزل بين وصف المحبوبة، وذكر الأسواق

إليها، والمكافحة من (ظلمها). ويخرج إلى ذكر الخمرة بقصد (الشفاء) مما يعاني. ويستطرد في حديثها إلى أن يصل إلى المقصود الرئيسي من كل ذلك في الدخول (الحسن) إلى الممدوح. والأبيات متماسكة متداخلة، والأغراض متساوية منسجمة فيما بينها. أما العبارة فتشير فيها الرقة، والأنفة. ولا يغيب عن الأذن الموسيقى التي تلف القصيدة وتعطيها طابعاً مميزاً.

وإذا عدنا إلى حديث (حرارة) الغزل وجدنا أن هناك أسباباً أخرى تطامن من الغزل الصاحب الذي تبدأ به قصائده الغزليات، وتميل إلى الهدوء شيئاً فشيئاً حتى تستوي عند حد معين. ولكن هذا يؤدي بالقارئ إلى الإحساس بأن الشاعر يُقنن شعر الغزل، ويُزيّنه. وأن شعر الغزل هذا يعبر عن (حنين) الشاعر إلى صَبوت الماضي (البعيد أو القريب) أكثر مما يعبر عن فوران داخلي آني. وقد يُخيّل إليه أحياناً أن (الفن) أغلب من أي عنصر آخر. ولكن الشاعر في شعره الغزلي يعبر - باستمرار - عن خلجان الإنسان ونوازعه العميقة بيسر، وبمعرفة خبير.

فمن قصائده الغزالية التي لم يصلها ب مدح قوله :

عَلَّانِي بِذِكْرِ تِلْكَ الْلِّيَالِي وَعَهْوِدْ عَهْدَتْهَا كَاللَّالِي
لَسْتُ أَنْسِي لِلْحُبِّ لِيَلَةً أَنْسِي صَالَ فِيهَا عَلَى النَّوْى بِالْوَصَالِ

غفل الدهرُ والرقِبُ ويتنا
 ضمنا ضمة الوشاح عنانَ
 فبردَتُ الحشا بلشم برويد^(١)
 وكؤوسُ المدام تجلو عروسَا
 وينحر الدجاج ذوايْل شمع
 والثريّا تمدُّ كفأ خضيباً
 وكأن الصباح إذ لاح سيفُ
 ومسحنا الكري إلى غانياتٍ
 في رياضٍ تبسم الزهر فيها
 وجرى عاطرُ النسيم عليلاً
 فاكسي النهر لأمةٌ منه لاماً
 يا ليالي مني سلامٌ عليها
 فعِجنا من اتفاق المُحالِ
 بيمينٍ معقودة بشمالِ
 لم يزل بي حتى خبالي خباليِ
 أضحك المزج ثغرها عن لآلِ
 عكست في الرجاج نور الذبالِ
 أعمقت بالسماك نون الهلالِ
 يتنضى من غين وميم ودارِ
 غانياتٍ بكل سحر حلالِ
 لغمامٍ بكت دموع دلالِ
 يتهادى بين الصبا والشمالِ
 أن رمي القطر نحوه بنبالِ
 أتراها تعود تلك الليالي؟!

وبعد أن ذكر الشاعر لياليه الماضية، واسترجع أيامه
 الخواли استطرد - لأدنى سبب - إلى مجلس ضمه مع
 الحبيب، وخرج إلى ما لا يرى المجلس، والتفت إلى الطبيعة
 حوله في الأرض والسماء، ولو لا البيت الأخير الذي لفت
 الذهن إلى الموضوع الأصلي ووصل أوله بأخره لكان
 استغراق الوصف أغلب على الأبيات. وعلى الرغم من

(١) البرود: كل ما يرده به شيء كالشراب يبرد به العطش والكحل تبرد به العين. وحديث الشاعر هنا عن الثغر.

السلامة، والتناسق بين الشكل والمضمون فإن اصطناع الشاعر لعدد من ضروب التنميق البلاغي والتحسين اللغطي ملاحظ و واضح . وهو اصطناع يدل على بدء ماهره ؛ تخفي ما يراقه عادة (وعند الشعراء المتأخرین) من آثار جانبية على سلامه المعنى ونصاعة التعبير . وقد تغلب الصنعة على بعض النصوص فتؤثر على حرارة العاطفة ؛ ولكن هذا في شعره الغزلي قليل .

وللمقطوعات الشعرية الغزلية « موقف» خاص ، فهو يعبر فيها عن موقف نفسي تبلور في صيغة مختصرة . ولعمل المقطوعة عنده أكثر قدرة على التعبير عن حقيقة مشاعره وخلجاته من مقدمات القصائد المطولة ؛ كما في قوله من مقطوعة :

يا سالب القلب مِنِي عندما رَمَقا
لم يُتيقِّنْ حُبّك لي صَبِرًا ولا رَمَقا
لا تُسأَلِ اليوم عَمَّا كَابِدَتْ كِبِدي
لَيْتَ الْفِرَاقَ وَلَيْتَ الْحُبَّ مَا خَلَقَ
ما باخْتِيَارِي دُقْتُ الْحُبَّ ثانِيَةً
وَلَائِمَا جَارَتِ الأَقْدَارُ فَائِفَقا
وَكُنْتُ فِي كَلْفِي الدَّاعِي إِلَى تَلْفِي
مِثْلَ الْفَرَاشِ أَحَبُّ النَّارَ فَاخْتَرَقَا

يا منْ تَجَلَّى إِلَى سِرَّيْ فَصَيْرَنِي
ذَكَّاً، وَهَرَّ فُؤَادِي عِنْدَمَا صَعِقَ
أَنْظَرَ إِلَيَّ فِي النَّفْسِ قَدْ تَلَفَّتْ
وَارْفَقَ عَلَيَّ فِي الرُّوحِ قَدْ زَهَقَ!

ولا يخفى ما في الأبيات من الموقف العاطفي العميق، والتعبير الجميل الذي ابتعد عن الصنعة المعرفة وإن لم يبتعد عن الأنافة والاختيار. أضف إلى ذلك ما في تلوين أسلوب الخطاب من تأثير في النفس وقدرة على الإقناع بالموقف.

ويبقى (الغزل) من أهم الأغراض الدالة على شاعرية الرندي، وشعره، في روحه وأساليبه، وإبداعه الفني.

الوصف:

يشيع موضوع الوصف في شعر الرندي، فهو يلوّن قصائده المطولات، ويستقلّ بقصائد خاصة، وينفرد بمقاطعات غير مطولة أيضاً. وقد اهتم الشاعر بهذا الموضوع، وأحلّه متزلاً هاماً في القصيدة. وقد سبق أن قصيده المطولة التقليدية (وخصوصاً في المدح) كانت تتناول الغزل والوصف والغرض الأصلي أو المنظور إليه أساساً.

وهكذا يكون (الوصف) مناسباً للمقام المطروح فيه، فهو في أثناء القصائد يقدم أوصافاً ملائمة، جارية مع نسقها، أو

مستطردة - لأدنى ملابسة - بينما نجده في المقطّعات أكثر حرية فيتناول الموضوع الذي يحب. ويكثر - في المقطّعات - أن يكون الوصف لأشياء تتصل بأمور الحياة، وما هو في متناول الشاعر القريب.

أما وصف الطبيعة الأندلسية - والغرناطية بخاصة - فأمر يشيع في شعره كله: في المطولات وفي المقطّعات. ويتبع ذلك ما كان من وصف الأزهار، والثمار، والخمرة، وضروب الرياحين المختلفة. ويلاحظ قارئ كتابه (الوافي) أن اختيارات المؤلف من أشعار معاصره في وصف الطبيعة كثيرة فاشية. وهذا يفسر ما نذهب إليه من تفسي المدرسة الخفاجية في وصف الطبيعة، ومن انتشار طريقة في التصوير والتعبير أيضاً^(١).

فمن شعر الوصفي قوله يصف الليل وجملة أمور مناسبة:

ولَيْلَةٌ نَبَهَتْ أَجْفَانَهَا
وَالْفَجْرُ قَدْ فَجَرَ ضَوَءَ النَّهَارِ
وَاللَّيْلُ كَالْمَهْزُومِ يَوْمَ الْوَغْيِ
وَالشَّهْبُ مِثْلُ الشَّهْبِ عِنْدَ الْفِرَارِ
لَذَكَّ ما شَابَتْ نَوَاصِي الدُّجَاهِ
وَطَارَ الصُّبْحُ أَخَاهُ فَطَارَ

(١) الوافي في نظم القوافي «النسخة التيمورية»: ص. ٧٥ - ٧٦ مثلاً.

وفي الشّرِيَا قَمَرٌ سَافِرٌ
 عنْ غُرَّةٍ غَيْرِ فِيهَا السَّفَارُ
 كَانَ عَنْقُوداً بِهِ مَايْلٌ
 إِذْ صَارَ كَالْعُرْجُونِ عَنْدَ السِّرَارِ^(١)
 كَأَنَّمَا تَسْبِكُ دِينَارَه
 وَكُفُّهَا تَفْتَلُ مِنْهُ سَوَازٌ
 كَأَنَّمَا الصُّبْحُ لِمِشْتَاقِهِ
 عَزُّ غَنِيٍّ مِنْ بَعْدِ ذُلْ افْتِقَارٍ
 كَأَنَّمَا الشَّمْسُ وَقَدْ أَشْرَقَتْ
 وَجْهُ أَبِي بَكْرٍ بْنَ يَحْيَى أَنَّازٍ!
 فَالوصُفُ هو الوجه الأصلي المستفاد من الأبيات، ولكن
 الشاعر استغلَه في البيت الأخير - في قدرة على الاستفادة -
 في موضوع المديح .

وتكثر الأوصاف في شعره لتناول صغير الأشياء وكبيرها،
 في تلتفت الشاعر المدقق الذي ينظر فيما حوله بعيني مصور.
 متراجداً بين وصف الأمور التي سبق إلى وصفها ومحاولة
 الوقع على أشياء لم يُسبق إليها، والأكثر أن يعرض للطبيعة،
 وما يراه حوله من أمور.

(١) العُرْجُونُ من التخلع كالعنقود من العنب. والسرار. آخر ليلة في الشهر
 (القمري).

فهو وصف الجيش الجرار والسفينة. كما وصف الطبيعة، سواء في رسم المناظر العامة، أم في الإكباب على الاهتمامات الصغيرة المركزة كالنرجس والجعف والتفاح، وغير ذلك من أزهار وثمار.

قال في وصف السُّفن في البحر:

سفائن تسبح في لجة كأنها صوافن^(١) تلعب
من أدهم تهفو شراع به كأن صبحاً [دونه] غَيْبَهُ
إذا جرى من خلفه ملحاً فلاحٌ لعتقه ينسب
وأشهب صور من عنبر وأين منه العنبر الأشهب
واسحم يدعى غراباً وما ينبع بالبين ولا ينبع

وهو - على الرغم من تناوله معطيات حضارية بيئية - لم يخرج في عمله الوصفي عن إسباغ صفات مألوفة في الشعر العربي لوصف الخيل وغيرها. فكان العملية الشعرية تعتمد على (تركيب) ما يخص الفرس والغراب بما يناسب وصف السفن وهذا يخفف من نصاعة العمل الفني ويذهب بالكثير من جدته.

والوصف من الأغراض التي تظهر فيها العملية الشعرية

(١) الصافن: الفرس إذا قام على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة وقدد الشاعر مطلق الخيل.

- والغراب (في البيت الخامس) نوع من السفن الصغيرة.

عند الرندي بوضوح، سواء أكان ذلك في المقطوعات الصغيرة أم كان في القصائد المطولة. وهو يعتمد على «التشبيه» اعتماداً كبيراً، ويخيل إليك أحياناً أنه يُسرف في التشبيهات إسراهاً، ويتبع ذلك - وَيُماثله - اعتماده على الاستعارة بأنواعها. ونجد في تطلبه للمعنى الغريب، وتصيده للصورة المبتكرة، وفي إعادة تكوينه لبعض الصور القديمة مشابهٍ كبيرة تقرّب إلى مدرسة ابن خفاجة في المذهب الفني بعامة، وفي غرض الوصف بخاصة. وله من قصيدة يصف الليل :

كأنَّ الْبَدْرَ تَحْتَ الْغَيمِ وَجْهٌ عَلَيْهِ مِنْ مَلَاحَتِهِ لَثَامُ
كأنَّ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَ كَأْسٌ وَقَدْ رَقَ الزَّجَاجَةُ وَالْمُدَامُ
كَأَلَ سَطْرَ أَفْلَاكِ الدَّرَارِيِّ قَسِيٌّ وَالرُّجُومُ لَهَا سِهَامُ
كأنَّ مَدَارَ قُطْبِ بَنَاتِ نَعْشٍ نَّدِيٌّ وَالنَّجُومُ بِهِ نِدَامُ

وهو يأخذ من المعاني القديمة والصور التي سبق إليها الشعراء في محاولة تجديد مستمرة، أو يعتمد منهج بعض الوصافين المتقدمين أحياناً؛ ولا يغيب عن ذهن القارئ أن شيئاً من طريقة ابن المعتز قد تسرّب إلى عدد من مقطوعاته القصيرة التي زخرت فيها التشبيهات بألوان الحضارة والألفاظ المتعلقة بالترف والجواهر وما إلى ذلك كقوله :

وَجَذَولٌ كُلَّمَا مَرَ النَّسِيمُ بِهِ كَسَاهُ دِرْعًا لَهَا حَبَابَةُ حَلْقٍ
حَتَّى إِذَا انطَبَعَتْ لِيَلًا بِهِ شَهَبٌ لَمْ تَمَرِّ الْعَيْنُ فِيهِ أَنَّهُ الْأَفْقُ

وك قوله - مما تلمح فيه شيئاً من طريقة ابن المعتر -

أَمَا تَرَى حُسْنَ هَلَالِ الْأَفَقِ كَالثَّاجِ أَوْ كَالْقَوْسِ أَوْ كَالْزُورَقِ
أَوْ خَطَّ نُونٍ بِمَدَادِ ذَهَبٍ مُتَرْجِمٌ عَلَى رُجَاجٍ أَرْزَقِ

ويظل الإكثار من (التشبيه) في القصيدة بعامة، وازدهامه
في البيت الواحد أمراً مطلوباً عنده مرغوباً، كقوله في تشبيه
سبعة بسبعة :

وَصَفْرَاءَ لَوْنِ التَّبَرِ قَاسِمُهَا الْهَوَى
إِذَا مَا بَكَيْتُ الْحَبَّ لِيَلَّا بَكْتَ مَعِي
كَمِيلِيَّ فِي سُقْمِيْ وَلَوْنِيْ وَحُرْقَنِيْ
وَصَبْرِيْ وَشَهِيدِيْ وَصَمْتِيْ وَأَدْمَعِيْ

ويظهر في شعره الرندي الوصفي أثر العمل والصنعة؛
وعنصر المنافسة - مع المعاصرين - في الإجاده ومحاوله
التفوق .

الرثاء :

أفرد الرندي في كتاب «الوافي» بباباً خاصاً لغرض الرثاء؛
واستغله - كعادته في الأغراض الأخرى - في إيراد نماذج من
شعره في الرثاء تعد أبرز ما بين أيدينا منه. ونجد شعره هذا
في قسمين، القسم الأول منه خاص أسريري، رثى فيه من

اتصال به من المتوفين من الأقارب، والقسم الثاني يتعلق برثاء بعض من اتصل بهم بسبب .

وفي الأول رثاؤه في ابن له (اسمه محمد وكنيته أبو بكر) وفي والده، وفي زوجته. وفي الثاني رثاؤه في الأمير النصري محمد (الأول) وفي مَنْ دعاه أبا بكر، ولعله الوزير أبو بكر بن يحيى الذي كان من مددوحيه .

وتتخذ قصيدة الرثاء عنده منهجاً متقارباً، فهو يضمنها في العادة أموراً أربعة. أحدها: معان حكمية عامة في الدنيا، والحياة والموت، والفناء والخلود وأن كل شيء هالك إلا الله سبحانه وتعالى . والثاني: ذكر مآثر المتوفي وصور من حياته. والثالث التوجع والتقطيع وأثر المصاب في نفس الشاعر. والرابع: التصبر والتعزى وما يلحق بذلك .

وتختلف المواقف النفسية بحسب اختلاف المرثي ، فتجد في رثاء الأقارب حرارة اللوعة ، وذوب النفس ، ونضج العبارة عن مكنونات الشاعر ومشاعره . وتحس في رثائه للأمير محمد بارتفاع صوت الباكى دون أن تحس بانسحاب الدمعة . ويستقل الشاعر في القصيدة الرثائية من حاضره إلى ماض سبق كانت فيه للمرثي مآثر ومحاجر ، وهو يطيل الوقوف عند الماضي مُستنجدًا به لإثراء الحديث عن الحاضر . فمن شعره الرثائي قوله من قصيدة يرثي بها زوجته :

يَا بُرْزَهَةَ كَانَ فِيهَا لِلْمُنْيِ أَمْلٌ
 وَنُزَهَةَ لِلْهَوِيِّ وَالسَّمْعِ . وَالبَصَرِ
 مَضَتْ مُضِيَ الصَّبَا عَنِي وَلَا عِوَضٌ
 وَمَنْ يَقُولُ مَقَامَ الشَّفَسِ وَالقَمَرِ
 عَهْدِي بِالْأَفْتِنَا وَالْأَنْسُ يَنْظِمُنَا
 بِطِيبَةِ الْعَيْشِ نَظَمَ السَّلَكِ لِلْدُرَرِ
 رُوحَيْنِ فِي جَسَدِ، سِرَرِينِ فِي خَلْدِ
 كَمَا تَقَابِلَ أَهْلُ الْخَلْدِ فِي السُّرُرِ
 حَتَّى رَمَى الْبَيْنُ شَخْصَيْنَا فَفَرَّقَا
 كَمَا تَفَرَّقَ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالنَّظَرِ
 يَا لَيْتَنِي عِنْدَمَا حُمِّمَ الْجِحَامُ، كَمَا
 قَاسَمْتُهَا كَبِيْدِي، قَاسَمْتُهَا عُمْرِي
 فَإِنْ تَكُنْ زَهْرَةَ مِنْ روْضِهَا فُطِفِّتْ
 فَقَلْمَا تُمْتَيِّعُ الْأَيَامُ بِالْزَهْرِ
 وَإِنْ تَكُنْ دُرَّةً مِنْ سَلْكِهَا خُطِفَتْ
 فَالْدَّهْرُ أَذْرِي بِمَا يَسْبِي مِنْ الدُّرَرِ
 يَا قَلْبُ صَبْرَاً عَلَى مَا قَدْ فُجِعْتَ بِهِ
 فَلَسْتَ فِي دَفْعٍ مَقْدُورٍ بِمَقْتَدِرٍ
 لَا تَبْكِ فَقْدَ حَبِيبٍ أَنْتَ تَابِعُهُ
 إِذَا مَضَى الْبَعْضُ فَالْبَاقِي عَلَى الْأَثْرِا

فهو تذكّر زوجته - كما ترى - وتذكر أيامها الخوالي يوم أن كان الدهر مُساعفاً، حتى جاء الفراق الأخير الذي لا لقاء بعده، وتفجّع وتوجع وفدى، وذكر بعض مآثرها، ثم خلص إلى العزاء والصبر، في كلام مشوب بالحكمة. وللشاعر قصيدة أخرى في رثاء زوجته^(١).

وفي رثاء ابنه أبي بكر تحسّن بحرارة اللوعة منذ البيت الأول، ويتكرر اسم ابنه (محمد) وكنيته (أبو بكر) مما يزيد في أثر القصيدة، ويعمقه، كقوله:

بُنْيَ أَبَا بَكْرٍ، بُنْيَ أَبَا بَكْرٍ
وَمَاذَا عَسَى يُغْنِي التَّعْلُلُ بِالذَّكْرِ
ذَهَبَ ذَهَابَ الصَّبْرِ عَنِي مُكَرَّهًا
فَوَأْسَفِي الْأَلِقاءِ إِلَى الْحَشْرِ
فَإِنْ كُنْتَ نَجْمًا رَاغِمًا مِنْهُ أَفْوَلَهُ
فَمَا لَكَ لَا تَبْدُو مَعَ الْأَنْجُمِ الرَّزْهَرِ؟
وَإِنْ كُنْتَ رَهْرًا جَفَّ إِذَا خَلَفَ الْحِيَا

فَمَا لَكَ لَا تَخْنِي وَدَمْعِي كَالْقَطْرِ

ويخرج الشاعر بعد أبيات أخرى في وصف أثر فقده في

(١) أورد قصيدة عينية في النسخة المغربية (الرباط) في موضع القصيدة الرائية من النسخة التيمورية.

نفسه، وشجاه من مصابه إلى التعني باسمه مرة أخرى، في تكرار مؤثر:

مَحْمُدٌ مَا أَشْجَى فِرَاقَكَ لَوْعَةً
مَحْمُدٌ مَا أَذْهَى مُصَابَكَ مِنْ أَمْرٍ
مَحْمُدٌ فِي قَلْبِي مَحْمُدٌ فِي فَمِي
لَئِنْ غَابَ عَنِّي فَمَا غَابَ عَنِّي فِي كُرْبَرِي
وَعَنْصَرِ التَّسْلِيمِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَالْإِذْعَانِ لِمُشَيْتِهِ بَارِزٌ دَائِمًا فِي
قَصَائِدِ الرَّثَائِيَّةِ. وَهَذَا إِنْ كَانَ مِنَ الْأَحْكَامِ الإِسْلَامِيَّةِ
الْعَامَّةِ، فَإِنَّهُ مَرْتَبَطٌ بِشَخْصِيَّةِ الشَّاعِرِ ذَاتِ الْجَوَابِ الْفَقِيهِيَّةِ
الْدِينِيَّةِ الْوَاضِحَةِ.

وفي رثاء الأمير النصري محمد - التي بعث بها إلى الأمير الجديد من بلده رُندة - جمع الشاعر إلى رثائه المديح، فهي قصيدة محبوبة الطرفين بالغربيين؛ العزاء بالمتوفى والاستقبال المحاكم الجديد. أما معاني الرثاء فيه فتدور حول شخصيته وخصاله وما قد سبق منه من أفعال عظام، وحول ما كان لوفاته عند الناس من أثر، فمن هذه القصيدة:

يَا حَسْرَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى مَلِكِ
قَدْ كَانَ حَسِبَهُمَا لَوْمَدُ فِي الأَجْلِ
أَصَابَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجْبِ صَائِبَةٌ
إِنَّ الْمُنْوَنَ لِأَرْمَى مِنْ بَنِي ثَعَلَبِ

وزوال الملك دهراً ثم فارقة
وزال عنده وذاك الفخر لم يزل

ومنها:

أصبحت فينا على حكم الردى خبراً
فكنت كالضيف أو كالطيف والممثل
كان وجهك لم يُشرق لนาصره
كالبدر في السعد أو كالشمس في الحَمْلِ
كان كفُكَ لم تُبسط لآملها
يوماً ولا عرضاً للجُود والقُبَيلِ
وعلى الرغم من وجود معانٍ مشتركة في قصائد الرثاء،
ومنهج عام يتظلمها لديه عادة، فإن لكل قصيدة عنده جواً
خاصاً بها، ومعاني فرعية تنس同 مع المناسبة، لتناسب
الظرف.

أغراض أخرى:

شارك الرُّندي في أغراضٍ شعريةٍ أخرى؛ مشاركةً جانبيةً،
لم تَنْسَنْ من أصل اهتماماته، كالحكمة والهجاء.

أما الحِكمة فقد كانت تَرِدُ في شعره في أثناء الأغراض
الأخرى في مُناسباتِ الفَوَاجع وقصائد الرثاء، أو في لحظاتِ
الاعتبار والزهد بالحياة الفانية. وأكثر ما نجده منها في قصائد

الرثاء كرثأته لبلاده الضائعة، ورثاء مزوجته. وتبعاً لهذا فإن أهم ما يلتفت إليه شعره الحكمي يتعلق بالحياة والموت، وتفاهة الدنيا، وحتمية الرجوع إلى الله. ويأنس الشاعر في أنساء ذلك بزوال ملك الملوك واتحاء سلطان المتنفذين وسرّيـان حـكم الموت عـلى كل حـي :

إذا كان أمر الله للمرء طالباً
فقد هان مطلوبٌ وقد عَزْ طالبٌ
الآن الدنيا خيالٌ وأهلها
بها عَرَضٌ والدهرُ بالكُلِّ لاعبٌ . . .

ويسترسل الشاعر في وصف الدنيا الزائلة - فالقابض عليها لا يلوى على شيء - ويصل إلى مخاطبة (البطل) الذي تغره الدنيا فينسى الحقيقة :

الآن البطلُ كم أنت غافلٌ
كأنك عن هذِي المشارب غائبٌ
الآن فانظر الدنيا بعين بصيرة
فللتُرك يا مفرورُ ما أنت كاسبٌ!
الم ترَ أنَّ الموت أكبيرُ شاهدٍ
على أنه لا يُغلِّب الله غالبٌ؟
وهو يركز على زوال العز عن يظن الناس دوام العزل لهم

كالملوك وأضرابهم، ويضرب الأمثال بهم:

أين الملوك وأبناء الملوك وما
شادُوه من أثَرٍ شَدُوه بالآئِرِ
وأين ما حَجَبُوه في مقاصِرِهِم
من أوجُهِ زُهْرِ كالأَنْجُمِ الرُّزْهُرِ . . .

وهذه الأبيات تذكرنا بأبيات مشابهة في المعنى والمغزى وردت في قصيده «لكل شيء إذا ما تم نقصان» في رثاء ما سقط من بلدان الأندلس واستنهاض الهمم لاسترجاعها.

وحكمته دائماً مستخلصة من عبر الحياة، وأكثرها يصدر عنه في مجال الموت، والفناء، والخراب، وتتنضح عن نفس مؤمنة مترسبة بالقناعة الدينية. وهو بعيد جداً عن أية معانٍ فلسفية غريبة.

● وله أبيات قليلة أوردها في معرض حديثه عن غرض الهجاء لا تجعله من أهل هذا الباب، وإنما هي المناسبة العارضة أو المشاركة في الدعاية العابثة، ولم نعرف في ترجمته وأخباره ما يدل على خصومات له ظاهرة أو عداوات أكيدة، بل غالب على صورته لدينا الفضل والأناة ورجاحة العقل. ومن هجائه الذي أورده لنفسه في أثناء استعراضه لأشعارهم في الثلقاء قوله:

تزلزلت الأرض زلزالها فقلت لسكانها: مالها؟
فقالوا أتنا أبو خالد فأخذت الأرض أثقالها!
والهجاء من أقل أغراض الشاعر، ولا نظنه غرضاً اكتزث
به في حياته.

الجهاديّات وشعر رثاءِ البلاد الإسلاميّة المغلوبة

١ - ظهر في الأندلس ضربٌ من الشعر - والنشر أيضًا - كان صدىً مباشرًا، وغير مباشر، لأحداث الحرب الدائرة بين المسلمين في الأندلس وخصومهم من الدول الإسبانية. وهو أدبٌ يهدف إلى تصوير نكبة الأندلسيّين بفقدان أجزاء من بلادهم، وتحريض القوم على الصمود ومواصلة القتال، وهو يدعو المسلمين من بَرِّ العُدُوِّ وما وراءه لإنقاذ الأندلس، والمشاركة في الجهاد المفروض. وقد تجتمع هذه العناصر في القصيدة الواحدة، أو يكتفى بعضها.

وَجَذْوَرُ هَذَا الضَّرْبُ مِن الشِّعْرِ قَدِيمَةٌ قَدَمَ حَرْكَةُ الْاسْتِغْلَابِ نَفْسَهَا، وَلَكِنَّهُ صَارَ غَرْضًا بَارِزًا مِنْذُ عَهْدِ الْفِرَقِ (الطوائف) الَّتِي اتَّشَرَتْ حُمَّى دُوَيْلَاتِهَا فِي الأندلسِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهِجْرِيِّ حِيثُ اشْتَدَتْ عَلَيْهِمْ وَطَأَةُ حَرْكَةِ الْاسْتِغْلَابِ وَسَقَطَتْ مَدِينَةُ طَلِيْطَلَةِ الْمَنِيْعَةِ. وَوَجَدَ الْمُفَكِّرُونَ وَالْمُتَفَقُونَ وَالْمُخْلِصُونَ مِنْ أَهْلِ الأندلسِ أَنْفُسَهُمْ فِي مَوْقِفِ الْمَسْؤُلِيَّةِ؛ فَهَبُوا مِنْ عُلَمَاءَ وَفُقَهَاءَ وَأَدْبَاءَ وَمُخْلِصِينَ لِلْقَضِيَّةِ يُشارِكُونَ فِي الْحَمْلَةِ الْمُضَادَّةِ قَوْلًا وَعَمَلًا. وَكَثُرَ التَّحْذِيرُ مِنْ أَخْطَارِ التَّفَرْقِ، وَالْإِسْتِنَامَةِ عَنِ الْجَهَادِ، وَمَغْبَةِ التَّخَازِلِ وَالتَّقَاعُسِ. وَبَرَزَ التَّحْرِيْضُ عَلَى الْجَهَادِ وَالْقَتَالِ وَحَمْلِ السَّلَاحِ لِاستِرْدَادِ مَا ضَاعَ وَالْدِفَاعِ عَمَّا بَقِيَ. وَاتَّخَذَ الْأَدْبُ

المتعلق بهذا الغرض اتجاهين كبيرين (تتفرع منها أمور كثيرة) هما:

- ١ - الدعوة إلى الجهاد، ومواصلة الكفاح.
- ٢ - بكاء ما ضاع من بلاد المسلمين.

وزاد هذا الغرض نشاطاً واسعأً عدداً من الأسباب المتضافة المتدخلة. فمنها تقلص ظلّ الرقعة الأندلسية، بعد ضعف الموحدين، شيئاً فشيئاً. وإحساس الأندلسي أن الدائرة المحيطة به تضيق وتختنق؛ وشكل حرب الاستغلال وطابعها المشابه لما كان في المشرق آنذاك^(١).

ومنها القسوة العارمة والعدوان الطاغي على الناس، على اختلاف أعمارهم وأنواعهم.

ومنها عدم احترام المواثيق - على الأغلب - وقلب معطيات الثقافة الإسلامية.

ومنها روح الاستشهاد التي كانت تضج في صدور الأندلسين، وتتفجر في صدور العلماء والفقهاء وذوي المكانة من رجال الأندلس.

ومنها ارتباط الأندلسي بأرضه ارتباطاً قوياً، وشعوره بالواجب الجهادي الملقي على عاتقه.

(١) راجع في هذا الكتاب (الحياة السياسية) من الفصل الأول.

٢ - ويقف الديارس على تيارات ثلاثة من شعر رثاء البلدان في الأندلس. أحدها: رثاء المدن الضائعة مما سقط في يد العدو، مما سبق الإلماع إليه في الفقرة السابقة. والتيار الثاني رثاء الدول الأندلسية الزائلة في أثناء الحكم العربي الإسلامي للأندلس؛ وهي **الدوليات** التي قامت بعد سقوط الدولة المروانية؛ وأشهر تلك الدول التي رثاها الشعراء دولة بنى عباد أصحاب إشبيلية، ودولة بنى الأفطس أصحاب بطليوس. والتيار الثالث هو شعر رثاء المدن التي كانت عامرة فخررت بظروف سياسية أو اجتماعية كالشعر المقول في خراب قرطبة بعد الفتنة البربرية، وخراب إلبيرا بعد هجر أهلها لها وبنوغ مدينة غرناطة.

ويتووجه الذهن عند الحديث عن رثاء الأندلس إلى أصحاب التيار الأول من الشعراء، لأنهم هم الأكثر عدداً، والأشهر شرعاً، وشعرهم هو المقصود بالدرجة الأولى^(١).

٣ - كان الحديث عن الحروب بين الأندلسيين وخصومهم يقع في أثناء قصائد المديح كما نجد ذلك بوضوح في ديوان ابن دراج القسطلي الذي سجل حروب الحاجب المنصور تسجيلاً رائعأ:

وببدأ تيار رثاء المدن والمحضون الضائعة عنيفاً غزيراً منذ

(١) راجع كتابنا «سقوط الأندلس: في التاريخ والأدب».

سقوط طلَّيْلَة سنة ٤٧٩ هـ. ومما بقي من أشعارهم في ذلك أبيات لابن العسَّال الزَّاهِد، وقصيدة مطولة لشاعر مجهول أوردها المقرى في نفح الطيب، منها:

لِتُكَلِّكِ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الشُّغُورُ سُرُورًا بَعْدَمَا سُبِّيْتُ ثَغُورُ
طَلِيلَةً أَبَاحَ الْكَفَرُ مِنْهَا جِمَاهَا إِنَّ ذَا نَبَأًا كَبِيرًا
فَلَيْسَ مِثَالَهَا إِيْوَانُ كَسْرَى وَلَا مِنْهَا الْخُورَنُقُ وَالسَّدِيرُ

وقف الشُّعُراء عند نكبة بلنسية وشرق الأندلس حين سقطت في يد السَّيِّد كما صنع ابن خفاجة^(١) في أواخر القرن الخامس. ثم استراح الأندلسيون إلى عهد القوة والتمكّن في أيام المرابطين، وصدرأً من دولة الموحدين؛ فلما تهافت قوة هؤلاء ثم تهاوت دولتهم بدأ عهد استغلال إسباني - برتغالي جديد عارِم، فعاد غرضُ الجهاديات ورثاءِ المُدن الأندلسية غزيراً نشيطاً؛ وقام الأدب بدوره وأدى الأذباء مهمتهم. ويزَّ في هذه المدة أبو البقاء الرُّندي، وابن سهل الإشبيلي، وابن الأبار، وأبو المُطَرْفَ بن عَمِيَّة المَخْزُومي وغيرهم.

وفي ديوان ابن سهل الإشبيلي قصيدة أنشأها بطلب من أمير إشبيلية أبي عبد الله الموحدي لِحَثَّ عَرَبِ الْمَعْقَلِ على القدوم إلى الأندلس من شمال إفريقيَّة والجهاد فيها، منها:

(١) راجع: ابن خفاجة، من سلسلة (الذخائر ١) للمؤلف.

ورداً فمضمون نجاح المُضدر
 هي عزة الدنيا وفوز المُخسر
 نادى الجهاد بكم لينصر مُضمر
 يبدوا لكم بين العناق الضمیر
 أنتم أحق بننصر دين نبيكم
 وبكم تمهد في قديم الأعصر^(١)

واستنجد ابن مردنيش بالأمير الحفصي صاحب تونس،
 وبعث كاته وزيره ابن الأبار، فأنشد قصيدة في مدحه
 والاستنجاد به، واستنفاره للجهاد، منها:

ادرك بخيلك خيل الله أندلسًا
 إن السبيل إلى منجاتها درسا
 وهب لها من عزيز النصر ما التمث
 فلم يزل منك عز النصر ملتمسا^(٢)

وشهد ابن عيمدة المخزومي سقوط بلنسية وجزيرة شقر،
 ومدن الشرق الأندلسي سقطاً نهائياً، فذكر ذلك في شعره
 وكرر التأسف، والتحسر، واستنهاض الهم. فمن شعره في
 سقوط بلنسية:

(١) ديوان ابن سهل الإشبيلي (بيروت) ١٤٠.

(٢) راجع مختارات من الشعر الأندلسي (المؤلف) ١٤٢.

ما بِالْدَمْعَكَ لَا يَنْبَغِي مِدْرَارُهُ
 امْ مَا لِقَلْبِكَ لَا يَقِرُّ قَرَارُهُ...
 بَحْرٌ مِنَ الْأَحْزَانِ عَبْ عَبَابُهُ
 وَارْتَجَعَ مَا بَيْنَ الْحَشَاظَارِ
 فِي كُلِّ قَلْبٍ مِنْهُ وَجَدَ عِنْدَهُ
 أَسْفٌ طَوِيلٌ لَيْسَ تَخْبُونَارَهُ
 أَمَّا بِلَنْسِيَةِ الْمَثْوَى كَافِيرِ
 حَفَّتْ بِهِ فِي عَقْرِهَا كُفَّارَهُ
 وَالشِّعْرَاءُ كَثُرُ، وَالشِّعْرُ غَزِيرٌ.

٤ - كان الرُّندي واحداً من أدباء القرن السابع، وشهد
 تهاوي المجد الأندلسي منذ بدايات هذا القرن. وتأثر كما تأثر
 معاصرُوه من الأدباء والشعراء. ونحن نعرف له قصيدة
 المطولة .

* لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمْ نَقْصَانُ *

ومن المحتمل أن يكون في شعره الضائع قصائد أخرى
 في الغرض .

وقد أسلفنا في الفصل الأول أن صاحب كتاب الذخيرة
 السنية ذكر القصيدة وقال إن الرُّندي أنشأها بعد سلسلة
 التنازلات من قبل ابن الأحمر لـألفونسو ملك قشتالة سنة ٦٦٥

ويظهر أن التنازلات الإسلامية - تحت الضغوط القاسية - كانت فادحة، و اختللت الروايات في تقديرها، ولكنها زادت عن أربعين مسورة من مدينة وحصن وما شابه - وهذا رقم مرتفع جداً.

ونقل القصيدة - من بعد - المقرري في كتابه أزهار الرياض، ونفح الطيب. وذكر أن زيادات قد طرأت على القصيدة - بعد سقوط الأندلس نهائياً - ليست من أصلها. ويسلم للرندي ٤٣ ثلاثة وأربعون بيتاً رواها أيضاً في الذخيرة السننية^(١).

وتمضي قصيدة الرندي في ثلاثة اتجاهات.

١ - الاعتبار بزوال الدول وموت الملوك والعظماء والتأسي بهم فلكلِّ أجل محظوم.

٢ - تصوير سقوط المدن الأندلسية في يد العدو، وما حل بأهل الأندلس من مصائب ونكبات.

٣ - الدعوة إلى الجهاد، والاستنجاد بأهل بر العدة. وفي القصيدة دعوة ظاهرة للاستنجاد بدولة بنى مرين^(٢). وكان ابن

(١) انظر في تحقيق النص والدراسات حوله «محارات من الشعر الأندلسي» د. محمد رضوان الديابة - دمشق» ص ١٥٠ - ١٦٠.

(٢) وكان الأمير المريفي الحاكم في هذا الوقت: يعقوب بن عبد الحق، وهو من مشهوريهم وشجاعتهم (انظر الذخيرة السننية: ٨٥).

الأحمر قد اقتنع - بعد الضغط القشتالي على الخصوص - بضرورة الالتجاء إلى الدولة المرinية الفتية، وأن يخفف من مخاوفه من استيلائهم على بلاده أو فرض شيء من سلطانهم. وزاد اقتناعه - مع الأندلسيين - بهذا الرأي بعد نجدة بنى مرین سنة 662 والتي أدت إلى هزيمة النصارى الإسبان. وهذا مستفاد من قوله في القصيدة:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَيْضَاءُ رَايْتُهُ
 أَدْرَكَ بِسَيِّفِكَ أَهْلَ الْكُفْرِ لَا كَانُوا
 يَاراكِبِينَ عِنَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً
 كَانُهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عَقْبَانُ
 وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةً
 كَانُهَا فِي ظَلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ
 وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دَعَةٍ
 لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانٌ
 أَعْنَدُكُمْ نَبَأً مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسِ؟!
 ... فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ

وتعد هذه الأبيات - وهي عنوان القصيدة - في جملة الحملة التي تولى القيام بها الفقهاء العاملون والأدباء والشعراء الذين تحملوا مسؤولية الإعلام. وكان هدفهم تحريض بنی مرین وقبائل المغرب بعامة على الجهاد، وإنقاذباقي من

الأندلس والإثخان في أرض العدو. وتخرج الصرخة مدوية في وجه أصحاب الشأن الأعلى في غرناطة وفاس - وإن كانت لهجة الخطاب عامة - في قوله من القصيدة:

مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ
وَأَنْتُمْ يَا عَبَادَ اللَّهِ إِخْرَانُ
الْأَنْفُسِ أَبِيَّاتٍ لَهَا هِمَّ
أَمَا عَلَى الْخَيْرِ أَنْصَارٌ وَأَغْوَانُ؟

وتتوزع الأفكار الجزئية في القصيدة على النحو التالي ١ - ٥ : كل شيء إلى زوال، وحكم الدهر جار على من في هذه الدنيا، ٦ - ١٢ الاعتبار بالملوك والدول السالفة في التاريخ، ١٢ - ١٤ نقلة من الكلام العام عن نكبات الدهر، وتمهيد للدخول في موضوع (جزيرة) الأندلس، ١٥ - ١٧ بداية الحديث عن نكبة الأندلس، ١٨ - ٢٧ ذكر المدن الكبرى التي سقطت في يد العدو، وتحسر على ما أصابها، ٢٨ - ٣٥ الاستنجاد بملوكبني مرين وقبائل المغرب عامة والاستنصار بهم ، ٣٦ - ٤٣ تصوير نكبة الأندلسيين وما سلطهم الدامية.

وتسسيطر على القصيدة العاطفة الجامحة، ويُشيع فيها صدق التأثر وحرارة الانفعال وروعة الحماسة الدينية والوطنية.

ولغة الشاعر في القصيدة بسيطة معبرة، والألفاظ الأساسية

في التعبير من العبارات الموحية الدالة ذات الأثر المباشر. ولا شك في أن الشاعر انشغل بتصوير الواقع القاسي وبالحماسة الجامحة، والعبارة المُجلجلة عن التَّنْمِيق البديعي - وكان سمةً من سماتِ العصر - وابتعد عن الإسراف في التصوير، أو القصد إليه.

والقصيدة تجمع بين الوصف السردي والروح الانفعالية؛ والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة وثيقة.

ويقف الدارس في أثناء القصيدة على بعض الحكم، وهي مما استتجه الشاعر من الأحداث، أو استثار به من قناعة بالحتمية :

يمزقُ الدهرُ حتّماً كلَّ سابقَةٍ إذا نَبَتْ مَشَرَفَاتٌ وخُرَصَانُ
ولكن الشاعر جعل من قناعته بهذه الحتمية وسيلة لتبrier الانهيار الأندلسي ، ولعله ورَى بذلك عن الإشارة إلى أي أحد باعتباره السبب في هذا الانهيار.

وتعتبر قصيدة الرندي في أشهر قصائد الأندلسين في الجهadiات ورثاء المدن الأندلسية الضائعة لما فيها من صدق الانفعال، وحرارة التعبير، ولأنه استطاع بوصفه الدامي للحوادث الجارية على الأندلسين أن يحرك العواطف ويشد الانبهار. وهو - بعد - استطاع أن يضع قضية الأندلس في إطارها، حين جعل مصيبة أي جزء من أجزاء الأمة مصيبة

عامة لا خاصة، ورأى أن الجهاد لاسترداد السُّلُب من الوطن فرض عين لازماً لا يُسْقُط التَّكْلِيفُ به على أي حالٍ من الأحوال.

ومن خلال ذلك الوصف لما أصاب الأندرس، ومن أثناء الحض على الجهاد والقتال تبدو العاطفة الحزينة، ويظهر لك الشاعر الباكى الذى كاد يُيأس لولا الأمل البعيد الذى يتثبت به، ويرجوه:

تبكي الحنيفة البيضاء من أسفٍ
كما بكى لفراقِ الإلْفِ هَيْمَانُ
على ديارِ من الإسلامِ خاليةٌ
قد أسلمتْ ولها بالكُفرِ عُمرانُ . . .
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمْدٍ
إنْ كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانٌ

دراسة في شعر الرندي

وقع شعر الرندي في نفوس معاصريه موقع القبول، وتلقوه تلقياً حسناً. وأثنى النقاد على شعره وشاعريته.. فقال ابن عبد الملك المراكشي إنه كان خاتمة الأدباء بالأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام ومنتوره^(١). وقال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة عنه: وشعره كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ؛ وهو غير مؤثر للجزالة^(٢). وتحدث عنه بعض المعاصرين في معرض شعر الجهاديات ورثاء البلدان الإسلامية الضائعة، أو في تقويم كتابه النقي (الوافي). فمنهم غارثيا غومز في كتابه الشعر الأندلسي^(٣). وبيلاثيا في تاريخ الفكر الأندلسي^(٤) والأستاذ عبد الله كنون في مقالة بمجلة معهد الدراسات العربية في مدريد^(٥). والدكتور إحسان عباس في تاريخ النقد^(٦). وتجد دراستين عنه في

(١) نقلأً عن ترجمة الرندي في (الإحاطة) القسم المخطوط.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الشعر الأندلسي - ترجمة د. حسين مؤنس ٦١ - ٦٢.

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي - ترجمة د. حسين مؤنس ١٣١ - ١٣٢.

(٥) مجلة معهد الدراسات العربية - مدريد.

(٦) تاريخ النقد الأدبي - د. إحسان عباس.

تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ومحاتارات من الشعر الأندلسي^(١).

ويظهر من شعر الرندي الباقى أنه طرق الأغراض الشعرية التقليدية، وأكثر من المدح والغزل كما تقدم. أما الجهadiات ورثاء المدن فقد كان غرضاً بارزاً في العصر ذاته. وكانت للشاعر مثل يحب أن يحتذىها كمعارضته لبعض قصائد المتني. وكان يمثل لبعض رغبات الممدوحين في معارضته قصائد بأعينها - أحياناً - كمعارضته لقصيدة ابن هانىء الفائية:

اليلتنا إذ أرسلت وارداً وخفا
وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شفنا

بقصيده التي مطلعها:

* أوصلتني يوماً وهاجرَتِي أُلْفَا^(٢) *

ويعد الرندي استمراً لحركة الأدب العربي التي لم تخمد جذوتها في الأندلس. وهو يمثل طبقة من الشعراء استمروا على نفس عال في صياغة الشعر، وجلاء في الفكرة ون الصاعة

(١) محاترات من الشعر الأندلسي (دراسات أندلسية ٣) - و تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (دراسات أندلسية ١) للدكتور محمد رضوان الداية.

(٢) من ترجمة الرندي في الإحاطة.

في العبارة، وغوص على المعنى الطريف والصورة الغريبة، وأناقة في الديباجة، سلاسةٌ وقربٌ مأخذ.

وهو ألح على طلب الصورة في ملاحقة واستجلاب، وأعجب بعنصر التشبيه وأكثر منه إكثاراً يلفت النظر. وتتجده يرصف في عدد من قصائده ضروباً من التشبيه رصفاً متلاحقاً؛ كقوله من قصيدة:

وليلٍ صَبَابَةٍ كَاللَّيلِ طُولاً تَنْكِرُ لِي وَعْرَفَهُ التَّمَامُ
كَأَنَّ سَمَاءَهُ رَوْضَ تَجْلِي بِزَهْرِ الرَّهْرِ، وَالشَّرْقُ الْكِمامُ
كَأَنَّ الْبَدْرَ تَحْتَ الْغَيْمِ وَجْهٌ عَلَيْهِ مِنْ مَلَاحَتِهِ لِشَامٍ
كَأَنَّ الْكَوْكَبَ الدُّرَّيِّ كَأسٌ وَقَدْ رَقَ الزُّجَاجَةُ وَالْمُدَامُ
كَأَنَّ سُطُورَ أَفْلَاكِ الدَّرَارِيِّ قِسْيٌ وَالرُّجُومُ لَهَا سِهَامٌ
كَأَنَّ مَدَارَ قُطْبِ بَنَاتِ نَعْشِ نَدِيٌّ وَالنُّجُومُ بَهَا نِدَامٌ

ويظهر للدارس إعجاب الشاعر بمدرسة ابن خفاجة، ومجاراتها في كثير من قصائده ومقطوعاته. وهو التجأ إلى الطبيعة، وتعايش معها، ومزج بين الحديث عنها وعدد كبير من أغراضه الأخرى. ووصل في بعض أوصافه للطبيعة إلى الامتزاج بها وال التجاوب معها.

وفي شعر الرندي سلاسةً وموسيقية ظاهرة. فهو عنى بالعبارة، وانتفى الكلمة، ولاعِم بين أجزاء الكلام. وبث في

قصائد موسيقا داخلية أكسبتها تلويناً صوتياً خاصاً. وهو اعتمد أيضاً - في الوصول إلى مطلبه هذا - على شيء؛ يقل حيناً ويكثر أحياناً، من التوازن والتقسيم والتصرير والترصيع، وانظر قوله من قصيدة:

أيا أصلعاً، حرّها، يلهبُ وياً أدمعاً، درها، ينهبُ
عجبٌ لعمرُك شأن الهوى ولكن صبري له أعجبُ

وتجد الشاعر مقتداً على الملاعة بين البحور والأغراض
التي يعالجها.

ويشعر الدارس أنَّ الصنعة اللفظية وضروب البديع قد سقطت إلى شعر الرندي، ولكنها لم تنتقض من أصالته شاعريته، ولا كانت حاجزاً أمام المعنى، ولا بهرجاً ثقيلاً على كاهل العمل الشعري. ولعل الشاعر استفاد من البديع في التلوين الصوتي، والتزيين اللفظي دون أن يصاب شعره بتصلب الإطار وتجمد المعنى. والرندي معجب بالطباقي، والجناس أداتين أساسيتين من صنوف البديع، إضافة إلى ضروب منه أخرى مثل لزوم ما لا يلزم، والتوازن، والتقسيم، وحسن الخروج والخلص... كقوله من أبيات:

يا سالب القلبِ مِنِي عندَما رَمَقا
لم يُبْقِ حُبُّكَ لي صَبِراً ولا رَمَقا

لَا تَسْأَلِ الْبَوْمَ عَمَّا كَابَدْتُ كِبِي
 لِبَتِ الْفَرَاقَ وَلِيَتِ الْحُبَّ مَا خُلِقَ
 وَكُنْتُ فِي كَلْفِي الدَّاعِي إِلَى تَلْفِي
 مُثْلَ الْفَرَاشِ أَحَبَ النَّارَ فَاحْتَرَقَ

وَمِنْ قُصْيَدَةٍ أُخْرَى:

وَلِيلَةٌ نَبَهْتُ أَجْفَانَهَا وَالْفَجْرُ قَدْ فَجَرَ نَهَرَ النَّهَارِ
 وَاللَّيلُ كَالْمَهْزُومِ يَوْمُ الْوَغْيِ وَالشَّهْبُ مِثْلُ الشَّهْبِ عِنْدَ الْفِرَارِ
 كَائِنًا اسْتَخْفَنِي السُّهْلَا خِيفَةً وَطُولُبَ النَّجْمُ بِشَارِ فَشَارِ
 لِذَاكَ مَا شَابَتْ نَوَاصِي الدُّجْجَا وَطَارَحَ النَّسْرُ أَخَاهُ فَطَازِ

وَقَدْ لَا يَكُونُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ أَنْ نَعْدَ الرَّنْدِي مَمْثِلًا لِلنَّفَرِ مِنْ
 أَهْلِ عَصْرِهِ الَّذِينَ أَشْرَبُوا بِحُبِّ الصُّنْعَةِ الْلُّفْظِيَّةِ وَالضَّرُوبِ
 الْبَدِيعِيَّةِ، وَشِعْرَهُمْ - مَعَ ذَلِكَ كُلِهِ - يَحْفَظُ بِرُوَايَهُ وَرُونَقَهُ
 وَأَصْالَتَهُ.

وَنَحْنُ حِينَ نَجِدُ الشَّاعِرَ مُعْرِضًا عَنِ الْمَوْشَحَاتِ
 وَالْأَزْجَالِ - إِذَا لَمْ يَقُعْ لَنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَمْ يَخْبُرَنَا فِي كِتَابِهِ
 النَّقْدِي بِهِ - نَلْقَاهُ مَهْتَمًّا بِأَمْرِ تَزِينِيَّةِ شَكْلِيَّةِ شَاعِرٍ بَعْضُهَا فِي
 عَصْرِهِ، وَتَفْنَنُهُ هُوَ بِعِرْضِ أَمْرٍ لَمْ يَمْثُلْ لَهَا مِنْ شِعْرٍ غَيْرِهِ.
 وَهُوَ ارْتَادُ الْقُصْيَدَةِ (الْمَطْوَلَةِ) وَالْمَقْطُوعَةِ، وَاسْتَخَدَمَ
 الْرِّبَاعِيَّاتِ أَوْ (الْمَرْبَعَةِ) كَمَا سَمَّا هَا.

فمن مربعاته قوله:

كُمْ دُعِينَا لِغَيْرِكُمْ فَأَبْيَنَا
وَضَحِكتُمْ تَدْلُلًا فَبَكَيْنَا
يَا قُسَّاءَ الْقُلُوبِ رِفْقًا عَلَيْنَا
مَا خُلِقْنَا بَيْنَ الْأَنَامِ حَدِيدًا

● ● ●

يَا قُدُودَ الْغُصُونِ عَنْدَ التَّثْنَى
مَا لَكُمْ فِي عَذَابِنَا بِالْتَّجَنِي
قَدْ قَنَعْنَا حَتَّى نَسِينَا التَّمَنِي
وَخَضَعْنَا حَتَّى بَسْطَنَا الْخُدوْدَا

● ● ●

وعقد الرندي في (الوافي) بباباً بعنوان «التفصيل» وتعريفه: «أن يقسم الشعر لقسمين أو أكثر في مواضع متوازية في أبياته، فإذا فصل منها قسم من كل بيت عما قبله، كان الباقى تام الوزن والمعنى. وينفك بذلك من القطعات ما تقتضيه صنعة ذلك. فمما ينفك منه أربع قطعات قوله:

يَا قَضِيبَاً، مُنْعَمَاً يَا غَرَزاً، مُهْفَهَفاً
زارِيَّومَا، وقد وفِي مُسْتَرَقاً، لَمَّا جَفَا
صِلْ مُجِبَاً، وَمُغَرَّمَاً وَمُعْنَى، وَمُدْنَفَا

ذَابَ وَجْدًا، مُضَعِّفًا وَوُجُودًا، فَأَتَلَفَا
 وذلك أن كل بيت منها ينقسم إلى أربعة أجزاء موازنة
 لأجزاء عروضها. فإذا أضفت الجزء الأول من كل بيت منها
 إلى ما شئت من أجزائه كان من ذلك ثلاث قطعات. وإذا
 أسقطت الجزء الآخر من كل بيت منها كان الباقي قطعة
 رابعة^(١).

ومن التفنن الشكلي إنشاء قصائد ومقطعات، تُقرأ بعدة
 قوافٍ. وقد عقد في الوفي باباً تحت عنوان (التبديل) وهو
 يقتضي تبديل الترتيب، أو تبديل القافية^(٢). وقد يكون
 التبديل في الروي فحسب.

فمما ينشد بثلاث قواف قوله :

دَعْنِي وَإِنْ قِيلَ الجنونُ فنونُ فَالصَّبُّ مثلي بالهُوَى مَفْتُونُ
 [مقلوب * مفروم]
 بَأْيِي الَّذِي أَشَكُو هَوَاهُ وَصَدَهُ وَالصَّدُّ صَعْبٌ وَالهُوَى تَهْوِينُ
 [تعذيب * تنكيد]
 كَتَبَ الجَمَالُ بِلحَظَةٍ فِي خَدَهُ وَالخَطُّ فِي حِسْنِ الْخُدُودِ يَزِينُ
 [عجب * يزيد]

(١) الوفي (النسخة التيمورية) : ١٢٦.

(٢) الوفي (نسخة الرباط) : ٣٩.

ومن تبديل الروي ما يتردد بين اللام والراء قوله:

قال الخليٌّ: براك الحبُّ، قلتُ: بلِي
وكم أجبتُ خلياً عندما عذلاً * عذراً
أرئيْه في الهَوَى من قِصْتِي عَجَباً
دَمْعاً إذا اشتعلتْ نَارُ الحَشا انْهَملاً * انْهَمْرا

ومما تفنب فيه الشاعر «التطريز» وهو إنشاد قصيدة، إذا جمعت أوائل الحروف من رأس كل بيت اجتمع من ذلك عبارة مقصودة أو اسم لمدحه، أو لمحبوب متغزل به الخ.

قصيدته:

ما عَدَةُ الْمُلْكِ إِلَّا السَّيْفُ وَالْقَلْمُ وَلَا السَّيَادَةُ إِلَّا الجَوْدُ وَالْكَرْمُ^(١)
وهكذا نجد الشاعر مهتماً في كتابه النَّقدي (الوافي) بالضُّرُوب البَدِيعية التي وصلت إلى عصره، ففصل فيها وضرب لها الأمثلة، وساق نماذج صنعتها على مِنوالها. وأظن أن شعره لم ينطبع بهذه الصبغة البديعية انتساباً شديداً، ولكن الشاعر اكتفى بالأخذ منها على قدر ما يتزين شعره دون أن يلتزم مذهباً دائمًا.

وهو بعد شاعر يملك القدرة على جذب الأسماع بشعره السرِّيق، السلس المتنقى العبارة، ويستطيع أن يمد في

(١) الوافي (النسخة التيمورية): ٦٥

القصيدة بِنَفْسٍ مُقتدر طُولٌ . وهو من جهةٍ أخرى موصول
اليد والصنعة بالتراث العربي الأصيل . وهو في معانٍه
المستجدة وصُورِه الجميلة نهب بين محاولة التجديد
الابتكارية ، وإعادة صياغة المعاني العربية السابقة في ثوب
جديد . فمن معانٍه اللطيفة التي تجمع بين النهجين :

وَجَدَوْلٌ كُلُّمَا مَرَّ النَّسِيمُ بِهِ
كَسَاهُ دَرْعًا لَهَا حَبَابَةٌ حَلْقٌ
حَتَّى إِذَا انْطَبَعْتُ لِيَلًا بِهِ شَهْبٌ
لَمْ تَمْتَرِ العَيْنُ فِيهِ أَنَّهُ الْأَفْقِ
وَقُولَهُ - وَلَا يَغِيبُ عَنْكَ نَهْجُ ابْنِ الْمُعْتَزِ -

أَمَا تَرَى حُسْنُ هَلَالِ الْأَفْقِ
كَالثَّاجُ أَوْ كَالْقَوْسِ أَوْ كَالْرَّوْرَقِ
أَوْ خَطَّ نَوْنَ بِمَدَادِ ذَهَبٍ . مُتَرَجِّمٌ عَلَى رُجَاحٍ أَزْرَقِ
وَمِنْ جَمْلَةِ صَلَتِهِ بِالتراثِ الْأَصِيلِ اسْتِلْهَامُ النَّفْحَاتِ النَّجْدِيَّةِ
وَالْحِجَازِيَّةِ ، كَمَا فِي قَصِيدَتِهِ^(١) .

سَلَمٌ عَلَى الْجَيَّ بِذَاتِ الْعَرَازِ وَحَيَّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الدَّيَارِ
وَخَلَّ مَنْ لَامَ عَلَى حَبِّهِمْ فَمَا عَلَى الْعَشَاقِ فِي الْحُبِّ عَازٌ

(١) القصيدة في نفح الطيب ٤ : ٤٨٩

الرندي ناقداً

اتسم عصر الرندي - كما سلف - بالتحرك والنشاط في مجالات العلوم والآداب والفنون. وعلى الرغم من الاضطراب وحال الفوضى التي وسمت جوانب كثيرة من مناحي الحياة فإن وجود تلك النشاطات كان واضحاً بيّناً. وكما وجدنا للشعر حركة وحياة فقد كان للنقد الأدبي في القرن السابع للشعر حركة وحياة فقد كان للنقد الأدبي في القرن السابع وجود وكان للنقاد مكان. ويظهر أمامنا عدد من النقاد مثل الشُّقْندي (٦٢٩) وابن دحية الكلبي (٦٣٣) وابن سعيد (٦٨٥) وحازم القرطاجني (٦٨٤) والرندي (٢٨٥).

الوافي في نظم القوافي :

وصل إلينا كتاب الرندي النقي وهو «الوافي في نظم القوافي» ومنه نسخ في مواضع متفرقة. وقد صنعه الشاعر ليكون في جملة الكتب النقدية الأندلسية التي تهدف إلى إعطاء فكرة كافية عن هذا الفن، وتقدم للقاريء معلومات كافية عن صنعة الشعر ومحاسنه وعيوبه وأغراضه وما يستحب أن يكون فيه من ضروب البيان والبديع الخ.. وقد قال في المقدمة: «وقد أفردت في كتابي هذا جملة كافية في صنة الشعر لمن أحب أن يأخذ بأزاراه ويطلع على أسراره ويتقن في بديعه، ويتبين سقطه من رفيعه ..».

وجعل الرندي كتابه في أربعة أجزاء . وقسم الجزأين الأولين إلى أبواب بينما اقتصر في الجزأين الآخرين على موضوعين رئيسيين . وفي الجزء الأول أربعة أبواب ، أحدها : في فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه . والثاني : في الشعراء وطبقاتهم ، والثالث : في عمل الشعر وأدابه ، والرابع في أغراض الشعر وأدابه .

والجزء الثاني من الكتاب في محسن الشعر وبديعه ومعانيه ، وهوأربعون باباً .

والجزء الثالث ، في عيوب الشعر وهي الإخلال ، والسرقة والضرورة .

والجزء الرابع في حدّ الشعر والعرض والقافية .

عرض الكتاب :

انتظم الجزء الأول أربعة أبواب ، في كل باب قضية من قضايا النقد الأدبي . وبعض هذه القضايا مما تكرر فيه الحديث في كتب النقد العربي المتقدمة أو مما لم يعد قضية نقدية مطروحة ، لاستقرار الأصول النقدية التي تعالجها . فهو تحدث عن فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه . وناقش حلية الشعر وجواز إنشاده . وانتقل إلى أخبار مطولة من مواقف

الرسول الكريم ﷺ والصحابة والخلفاء وهلم جراً. وفي الباب الثاني تناول قضية قسمة الشعراء إلى طبقات أو تصنيفهم إلى صنوف. فالشعراء ثلاثة جامِلُون ومحضرون وإسلاميون. وثلاثة: صدور (مثل جَرير والفرزدق والأخطل). ومُخْدِثُون (كالعَتَابي وأشجع السُّلْمِي والسَّيِّد الْحَمِيرِي) ومُوَلَّدون (مثل مُسلم بن الوليد، والحسَن بن هانى وأبان اللاحقى). وفي الباب الثالث تحدث عن عمل الشعر وأدابه، وبين طريقة تأليف الشعر، والحال التي ينبغي أن يتبعها الشاعر بها لكي يستطيع الإبداع. ونقل آراء سابقة وردت عند ابن قتيبة وقدامة، وأبن رشيق. وفي الباب الرابع تحدث عن أغراض الشعر وأدابه، وقال إن الأغراض التي تدور على الألسنة ويتداولها الناس ثمانية أنواع: النسيب، والمدح، والتهنئة، والرثاء، والاعتذار، والعتاب، والذم، والوصف.

وخصص الرُّندي الجزء الثاني من كتاب (الوافي) بموضوع: محسن الشعر وبديعه ومعانيه. وتناول فيه فنون البلاغة - والبديع منها على الخصوص - وأورد في هذا القصد أربعين باباً مما اقتنع به، ورأى أن أهل الفن اجتمعوا على تأييده. قال «اعلم أن أرباب صنعة الشعر ونقاد الكلام تواضعوا في صناعة الشعر على أسماء وسموا بها بداعه، ورسموا روائعه فجمعوا فوائده ونظموا بذلك فرائده». وقد أوردت من ذلك

أربعين باباً تروق الناظر، ويفوق بها المناظر...»^(١) والأبواب الأربعون تتناول: الابتداء والانتهاء، والاستطراد، والمطابقة، والمقابلة، والمناسبة، والتشبّه، والاستعارة، والتخيل، والتفریع، والتوجیه، والتّمثیل، والتّمثّل (بمعنى المثل السائِر)، والتّجنيس، والمضارعة (وهو نوع من التّجنيس) والتردید، والتصدیر، والإتباع، والتّبديل، والتّضمين، والإطّراد، والتفسير، والمبالفة، والتّتميم، والتّسهيّم، والتحرز، والالتفات، والتحریف، والاشتاء، والقلب، والتصحیف (وهو نوع من التّجنيس) والتّرصیع، والتسجيّع، والتسمیط، ولزوم ما لا يلزم، والتّفصیل، والتّختیم (ويسمى التقاطع والاشراك)، والإحالّة، ونفي الشيء بإيجابه، واللغز.

وفي الجزء الثالث تناول عيوب الشعر، وهي كما صنفها ثلاثة: الإخلال، والسرقة، والضرورة. ويندرج تحت كل واحد من هذه الصنوف أقسام، وتتفّرع هذه بدورها إلى فروع^(٢). أما الإخلال فيتناول عيوب اللّفظ أو المعنى أو اثلافيهما، وعيوب الوزن والقافية. وأما السرقة فهي على

(١) الوافي (النسخة اليمورية ٧٤) وانظر دراسة مفصلة عن هذه الفنون ومصادرها عند الرندي في: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس - د. محمد رضوان الداية - دار الأنوار. «دراسات أندلسية»،

(٢) الوافي (النسخة اليمورية) ١٤٠ . (وناريخ النقد الأدبي في الأندلس ٤٦٠) .

أنواع، وبابها متسع، والتخلص منها بالجملة يكاد يمتنع، ويدل على استحسان الآخذ لما أخذه وعجزه عن الإتيان بما يغنيه عنه أو على قلة المبالغة بها^(١). وهو جعل للسرقة أنواعاً ونقل لها ألقاباً. وقسم الحديث في هذا الجزء إلى ضروب السرقة، ومراتب الأخذ، وما يشبه السرقة. وأورد ألقاباً وتفاصيل كثيرة، معظم ما فيها سبق أن تحدث عنه النقاد المتقدمون، وبقي له فضل الاختيار، والترتيب، والتسمية (أحياناً)، والمعالجة وفق وجهة نظر خاصة.

والضرورات الشعرية عند الرندي على الجملة من العيوب، ولكن بعضها أخف من بعض^(٢). وهي عنده على أربعة أضرب: التبديل، والتقديم والتأخير، والزيادة، والنقصان ومعظم ما في الباب نتيجة، وخلاصة، و اختيار، لمؤلفات كثيرة تناولت هذا الموضوع في كتب النقد العربي.

أما الجزء الرابع فخاصّ بحدّ الشعر والعروض والقافية، وهو يلحق بالبحوث العروضية. وهو عدّ البحور العربية خمسة عشر بحراً، واستخرج البحور المهملة - وأضاف إليها بحر المُتدارك - ومثل ذلك تمثيلاً وافياً.

والطريف أن الرندي لما استخرج البحور المهملة لقبها

(١) الوفي: ١٤٨.

(٢) الوفي: ١٥٧.

اللقاباً، وضرب أمثلة لها. كما نظم ضوابط خاصة بالبحور الشعرية المستعملة^(١).

وعلى كل حال فإن كتاب الرندي يدل على استمرار وجود الحركة النقدية في الأندلس (السابقة) واهتمام جمهرة الدارسين بهذا النوع من التأليف. وقد كان الرندي في أثناء عرض موضوعات كتابه دائم الاحتجاج والاستشهاد بأشعار معاصريه - ومن تقدمهم - من الأندلسيين بالإضافة إلى الشواهد المتكررة في كتب النقد والبلاغة. وعمله هذا يربط ما بين الدراسة النقدية النظرية، والدراسة النقدية التطبيقية (ولو كان هذا على شكل بسيط).

وكان التقليد أغلب على ما في الكتاب من مادة وإن حاول المؤلف أن يسبغ عليه من نفسه، ويدخله في إطار منهج شخصي خاص. ولكن المادة النقدية الأولية في معظمها كانت من الكتب المتقدمة عليه. وكانت يد الرندي ممدودة - على الخصوص - إلى كتاب العمدة لابن رشيق القير沃اني، فقد كان الأندلسيون مهتمين به حتى إن محمد بن عبد الملك الشترني ألف كتاباً في النقد وأفاد منه ورد عليه^(٢).

(١) انظر في هذا: المعيار في أوزان الأشعار (تحقيق د. محمد رضوان الداية) فقد نقلت فصول من كتاب الرندي في آخر الكتاب.

(٢) هو صاحب (المعيار في أوزان الأشعار) الذي سبق إليه في الحاشية السابقة وكتابه هو (جوامر الأداب وذخائر الشعراء والكتاب) وسيصدر في سلسلة دراسات أندلسية بتحقيقنا.

ويظهر أن للكتاب غرضاً تعليمياً واضحاً، فهو أقرب إلى تلخيص المعلومات النقدية وتقريبها للقراء.

الرندي كاتباً:

نشر الرندي في كتابه «الوافي» بعض رسائله، ويفي لنا من مؤلفاته جزء من كتاب «روضة الأنس ونزهة النفس» هو الجزء الأول. ويمكن أن نلمّ إماماً عامة بأسلوبه - على ضوء المتبقّي من كتابه -. ولا نعرف له، في ضوء أخباره، مهمة كتابية - سلطانية - عند بنى الأحمر في غرناطة أو إحدى مدن الأندلس الأخرى، أو عند سواهم ممن كان قبلهم. وقد سبق في الفصل الأول أننا لم نعرف له علاقة مباشرة مع حكام الأندلس قبل احتلاء محمد بن نصر (ابن الأحمر) لدولة غرناطة.

ونجد الرندي يسلك في أسلوبه الشري منهجين اثنين: أحدهما الأسلوب المنمق المثقل بضروب البديع، الآخذ بالسجع والتفصيل والتغصين. وهذا الأسلوب يظهر في مقدمة كتابه «الوافي» وكتابه الآخر «روضة الأنس». كما نجده في مقدمات فصول كتابه الأخير. والأسلوب الثاني سهل مُرسَّل تخفف الرندي فيه من القيود والمحسّنات، وتجده في

(١) روضة الأنس ونزهة النفس: ص ١.

معالجته لقضايا النقدية كلها في الوفي، وبسطه لمسائله المختلفة في روضة الأنس.

وهو اتبع الأسلوب المتكلف في رسالته التي بعث بها من زندة إلى الأمير محمد الثاني النصري معزيًا بوفاة والده، مهتماً بولايته السلطة^(١).

وهكذا فإن الرندي جمع بين الطريقتين وأجاد في الأسلوبين. وتجده في طريقته المرسلة البسيطة ناصع العبارة متمنكاً من اللغة محكمًا لتأليف الكلام.

فمن نشره على النهج الأول قوله في خطبة كتاب روضة الأنس^(٢) «الحمد لله قبل وجود الأوائل، الآخر بعد ثبوت الدلائل. الظاهر بما وجب من افتقار الفعل إلى الفاعل. الباطن بما حجب من حقيقة الحق الذي ما خلاه باطل.

نحمه، سبحانه، كما يجب لمجده، وإن من شيء إلا يسبح بحمده. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من شاهد فيض جوده وتحقق وجوب وجوده. فوصفه بالكمال، وزنه عن ضده. ونشهد أن محمداً صفة أصنفاته وخاتم أنبيائه وخيرة أهل أرضه وسمائه، نبي الرحمة وتمام النعمة. الذي بجاهه يتسلل يوم لا يقوم مقامه ملك مقرب ولا

(١) انظرها في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) روضة الأنس: ١ - ٢.

نبي مرسلاً. صلَّى اللهُ عَلَيْهِ صَلَاتَةً تُرْضِيهِ، وَتَفْيِي بِحَقِّهِ وَتَقْتَضِيهِ، وَعَلَى اللهِ وَسْلَمَ وَشَرْفُ وَكَرَمٍ. وَبَعْدَ فَإِنَّهُ لَمَا كَانَ الْأَدْبُ رَوْضَ الْقَلْبِ الَّذِي فِيهِ يَرْتَعُ، وَنُزْهَةُ النَّفْسِ الَّتِي بِهَا يَتَمْتَعُ، وَرَوْيَ الْقَلْبِ عِنْدَمَا يَظْمَأُ وَجْلَاءُ الْفَكْرِ كَلَمًا يَصْدُأُ رَأَيْتَ أَنَّ أَجْمَعَ فِي كِتَابِي هَذَا مِنْ عَيْنَ أَخْبَارِهِ وَفَنْوَنَ آثَارِهِ وَمُنْتَشِرَ فَوَائِدِهِ وَمَأْثُورِ فَرَائِدِهِ جَمْلَةً يَرْتَاحُ لَهَا الْعَاقِلُ وَيَتَبَاهِي بِهَا النَّاقِلُ، ذَلِكَ لِأَنِّي لَمْ آخُذْ مِنْ أَصْدَافِ الْكِتَابِ إِلَّا دُرُّهَا، وَلَا أَوْرَدْتُ مِنْ أَصْنَافِ الْأَدْبِ إِلَّا غَرَرُهَا، وَالْذَّهَبُ يَخْلُصُ بِاللَّهِبِ وَفِي الْخَمْرِ مَعْنَى لِيُسَّ في الْعَنْبِ وَسَمِّيَتْ رَوْضَةُ الْأَنْسِ وَنُزْهَةُ النَّفْسِ . . .».

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الشَّرِّ الفَنِيَّ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ عَلَى حَدِ سَوَاءِ قَدْ بَلَغَ ذَرْوَتِهِ، وَتَدْرَجَ فِي مَرَاتِبِ الصُّنْعَةِ وَالتَّعْقِيدِ فَإِنَّ الرَّنْدِيَّ لَا يَأْخُذُ بِالْأَسْلُوبِ الَّذِي انتَهَى إِلَى (الْأَسْلُوبِ الْمُرَصَّعِ) ^(١) بِلَ اخْتَارَ نَهْجًا مَعْتَدِلًا. وَلَعِلَّ هَذَا مَتَعْلِقٌ بِتَطْلُعِهِ إِلَى الْأَسْلُوبِ الْمَرْسَلِ وَانْطَلَاقِ قِبَودِهِ كَمَا فِي النَّصِ التَّالِي مِنْ رَوْضَةِ الْأَنْسِ أَيْضًا: مِنْ الْبَابِ الثَّانِي فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَعْلَقُ بِهَا مِنْ ذِكْرِ الْأَقَالِيمِ وَالْبَلَادِ وَالْبَحَارِ

(١) انظر في الأساليب التترية في الأندلس كتاب «أحكام صنعة الكلام» لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي تحقيق د. محمد رضوان الداية - عالم الكتب - الطبعة الثانية بيروت. وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس: ٤٠١٤ تأليف محمد رضوان الداية - الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة - دمشق وعصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت.

والأنهار. وفيه^(١) «ذكر أهل البحث والنظر أن الأرض مطبقة على مركز العالم ثابتة في جوف الهواء، وهو محيط بها وبما عليها من البحار لا يمسكها ماسك إلا الحكمة الربانية والقدرة الإلهية كما قال الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِنَّهُ تَرْزُولَهُ﴾. وذكر الناس في علة نبات الأرض في جوف الهواء الذي تأبه أفهم العوام وجوهاً أحقها أنه لما كان مركز العالم هو حقيقة السفل ونهايته الذي يطلب كل جسم ثقيل بطبعه انضمته عليه أجزاء الأرض من كل جهة فبقيت لذلك ثابتة في جوف الهواء. ولا يمكن للثقل إذا تحرك السفل أن يتجاوز المركز لأن ذلك يضاد حركته الطبيعية.

وقيل وجه آخر في ذلك وهو أن الله تعالى جعل في الفلك قوة جاذبة للأرض كذب المغناطيس للحديد، فلما استوى الجذب من كل جهة بقيت في الهواء ثابتة»^(٢).

كتاب روضة الأنس ونزهة النفس :

يعد كتاب الرندي الذي سماه روضة الأنس ونزهة النفس

(١) روضة الأنس ونزهة النفس ص ١٨ . ونقل النص دون تعليق على قيمة المعلومات الجغرافية فيه.

(٢) لم يطلع كراشكونفسكي على كتاب الرندي هذا . ولكنك تجد دراسة عن الأدب الجغرافي لعصر الرندي وأعلامه في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي - ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم - القاهرة - جزان .

في كتب الثقافة العامة التي شاع التأليف فيها؛ والتي كان مثالها البارز كتاب ابن قتيبة: *عيون الأخبار*. ويقول الرندي في مقدمة كتابه إنه ألفه كتاباً في الأدب جاماً لعيون الفنون والأداب والأخبار والفرائد والفوائد، وأنه انتقى «من الكتب دررها ومن أصناف الأدب غررها». ويكون (الأدب) الذي قصد إليه هو الأدب بمعناه الواسع الشامل الذي عرفه ابن خلدون بأنه الأخذ من كل علم بطرف.

وجعل كتابه في عشرين باباً تتوزعها الموضوعات التالية: الباب الأول في العالم ومعالمه. والثاني: في الأرض والبلاد. والثالث: في بدء البشر. والرابع: في النبي ﷺ. والخامس في الخلفاء وأهل البيت. والسادس: في الدولة الأموية. والسابع: في الدولة العباسية. والثامن: في أهل الردة والخارج. والتاسع: في جمل من الفتوح. والعشر: في لمع من...^(١). والحادي عشر: في الحرب. والثاني عشر: في الملك والرياسة. والثالث عشر: في العلم. والرابع عشر: في الشعر. والخامس عشر: في المال. والسادس عشر في النساء والبنين. والسابع عشر: في الناس والزمن. والتاسع عشر: في الحكايات. والباب الموفي عشرين: في الحكم والمواعظ».

(١) غير واضحة في الأصل (النسخة المصورة).

وهو في هذه الفصول - في الأغلب الأعم - ناقل ومصنف ومرتب، بيد أن له فضل العبارة الأنيقة والكلمة الرشيقه قال: «وقد ضممت في كل جزء منها الشيء إلى ما يماثله، وألحقت به ما يشاكله. ولجأت إلى فكري في كثير من الفصول القصار واللفظ المختار. إذ كان القصد في ذلك الإجادة لا الرواية والإفادة لا الحكاية»^(١).

والموارد من الكتاب هو الجزء الأول^(٢)، وينقطع في أثناء الباب التاسع «في جمل من الفتوح». وقد رفع الرُّندي كتابه إلى الأمير النصري محمد بن محمد وطرزه باسمه، احتفاء وتقديرًا «فإنه - أいで الله - زان الملك بالذات الفاضلة والصفات الكاملة والنصبة الإمارية والنسبة الأنصارية، فمن هم تساوي المجد وتجاوز الجوزاء وشيم شيم بها الدهر، وينسب لها الزهر، إلى جود تروى به الآمال ويسترق بمثله الأحرار». ولا يخفى المعنى من الوصف بالكرم والجود في خطبة الكتاب.

ومصادر الكتاب مختلفة متعددة، عرفنا منها عرضاً، وفي

(١) روضة الأنْس الورقة: ٢.

(٢) اطلعت على النسخة المchorة عند صديقي الأستاذ محمد مفتاح، عن الأصل الموجود في مكتبة صديقنا الأستاد الفقيه العلامة محمد المنوني الذي تكرم مشكوراً بالموافقة على الإفادة من الكتاب.

أثناء القسم الباقي من الكتاب: كتاب ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، وكتاب المسعودي مزوج الذهب ومغازي الواقدي. وهو نص على النقل من ابن إسحاق (في السيرة) وعن (صاحب التيجان) وصاحب المخطي، وصاحب الزهر (زهر الأداب). ولا شك في أن مصادره كثيرة وإن لم تتضح لنا جميعاً.

وكتاب الرندي من كتب الثقافة العامة التي يستفاد منها في الأغراض التعليمية وما يشبه ذلك. وليس في الكتاب جدة أو إبداع يلفت النظر. ولكن الأديب الشاعر كان يخرج عن موضوعه ليقدم قطعاً وقصائد من شعره تلون الكتاب وتقدم لنا ذخراً طيباً لشاعر غاب عنا ديوانه.





الفصل الرابع

مختارات
من آثاره

قال في مدح الأمير محمد بن نصر أمير غرناطة:

سَلَمُ عَلَى الْحَيِّ بِذَاتِ الْعَرَازِ
وَحَيِّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْذِيَارِ^(١)
وَخَلَلَ مِنْ لَامَ عَلَى حُبُّهُمْ
فَمَا عَلَى الْعُشَاقِ فِي الذُّلِّ عَارِ
٣ وَلَا تَفْصُرْ فِي اغْتِنَامِ الْمُنْتَى
فَمَا لِي إِلَيِّ الْأَسْرِ إِلَّا قِصَارُ
وَإِنَّمَا الْعَيْشُ لِمَنْ رَامَهُ
نَفْسُ تُدَارِي وَكُؤُوسُ تُدَارِ
وَرُوحُهُ الرَّاحُ وَرِيحَانُهُ
في طَيِّبِ الْوَصْلِ أوَ بِالْعَقَارِ^(٢)
٦ لَا صَبْرَ لِلشَّيءِ عَلَى ضِدِّهِ
وَالْخَمْرُ وَالْهَمُ كَمَاءُ وَنَازُ
مُذَامَةُ مُذَنِيَّةُ لِلْمُنْتَى
في رِقَّةِ الدَّمْعِ وَلَوْنِ النُّضَارِ^(٣)

(١) العرار: نبات طيب الرائحة (بهار البر) وذات العرار علم على مكان.

(٢) العقار: الخمرة.

(٣) النضار: الجوهر الخالص من التبر.

مَمَّا أَبْوِ رِيقْ أَبْارِيقْهَا
 تَنافَسْتُ فِيهَا النَّفَوسُ الْكَبَازْ
 ٩ مُعْلَتِي وَالْبَرَءُ مِنْ عَلْتِي
 مَا أَطَيْبَ الْخَمْرَةَ لَوْلَا الْخُمَارَ^(١)
 مَا أَحْسَنَ النَّارَ الَّتِي شَكَلَهَا
 كَالْمَاءِ لَوْكَفَ شِرَارَ الشَّرَازْ
 وَبِي وَانْ عَذَبْتُ فِي حُبِّهِ
 بِيُغَدِّهِ عَلَى اقْتِرَابِ الْمَزَازْ
 ١٢ ظَبْيُ غَرِيرُ نَامَ عَنْ لَوْعَنْتِي
 وَلَا أَذُوقُ النَّوْمَ إِلَّا غِرَارَ^(٢)
 ذُو وَجْنَةٍ كَائِنَهَا رَوْضَةً
 قَدْ بَهَرَ الْوَرْدُ بِهَا وَالْبَهَارْ
 رَجَعْتُ لِلصُّبُوةِ فِي حُبِّهِ
 وَطَاعَةُ الْهَوِي وَخَلْعُ الْعِذَازْ
 ١٥ يَا قَوْمَ قُولَا - بِذِمَامِ الْهَوِي - .
 أَهْكَذَا يَفْعَلُ حُبُّ الصِّفَارِ؟
 وَلَيْلَةٌ نَبْهَتْ أَجْفَانَهَا
 وَالْفَجْرُ قَدْ فَجَرَ نَهَرُ النَّهَازْ

(١) الخمار: صداع الخمرة وأذاتها وما خالط من سكرها.

(٢) الغرار من النوم: القليل.

والليل كالمهزوم يوم الوغنى
 والشعب مثل الشعب عند الفراز
 ١٨ كأنما استخفى السهام حيفة
 وطوابع النجم بشار فشار
 بذلك ما شابت نواصي الدجى
 وطراح النشر أخاه فطار
 وفي النهار قمر سافر
 عن غرة غير منها السفاز
 ٢١ كأن عنقوداً تثنى به
 إذ صار كالغرجون عند السرار^(١)
 كأنها تسبك ديناراً
 وكفها يفتل منه السوار
 كأنما الظلماء مظلومة
 تحكم الفجر عليها فجاز
 ٢٤ كأنما الصبح لمشتاقه
 عزٌّ غنى من بعد ذلٌّ افتقار
 كأنما الشمس وقد أشرقت
 وجة أبي عبد الإله استنار

(١) استر القمر أي خفي ليلة السرار؛ فربما كان ليلة وربما كان ليلتين.

٢٧ مَحْمُدٌ مَحْمُدٌ كَاسِمٌ

شَخْصٌ لَهُ فِي كُلِّ مَعْنَى يُشَارُ
أَمَا الْمَعَالِي فَهُوَ قَطْبُ لَهَا
وَالْقَطْبُ لَا شَكَّ عَلَيْهِ الْمَذَارُ

مُؤْثِلُ الْمَجْدِ صَرِيحُ الْعُلَا
مُهَذِّبُ الطَّبْعِ كَرِيمُ النَّجَارُ
تُزَهَّى بِهِ لَخْمُ وَسَادَاتُهَا
وَتَشَمَّى قَيْسُ لَهُ فِي الْفَخَارُ

٣٠ يُفِيضُ مِنْ جُودِ يَدِيهِ عَلَى
عَافِيهِ مَا مِنْهُ تَحَارُّ الْبِحَارُ
الْيُمْنُ مِنْ يُمْنَاهُ حُكْمُ جَرِى
وَالْيُسْرُ مِنْ شِيمَةِ تِلْكَ الْيَسَارُ

أَخْ صَفَا مِنْهُ لَنَا وَاحِدًا
فَالْدَّهْرُ مِمَّا قَدْ جَنِى فِي اعْتِذَارٍ
٣١ إِنْ شَكَرْنَا فَضْلَهُ مَرَّةٌ
فَقَدْ سَكَرْنَا مِنْ نَدَاهُ مِرَازٌ
وَنَحْنُ مِنْهُ فِي جَوَارِ الْعُلَا
تَدُورُ لِلْسَّعْدِ بِنَا مِنْهُ دَارُ
الْحَافِظُ اللَّهُ وَأَسْمَاؤُهُ
لِتِلْكَ الْجَارِ وَذَاكَ الْجِوازُ

قال في الوفي : «وانفصلت عن الحضرة النصرية - أسمها
الله - في بعض زوراتي ، وقد تُكلم بإعذار الأمير - أعزه الله -
فقلت في عروض هذه القصيدة» (*) :

إِلَشَامْ شَفْ عَنْ وَرْدِ نَدِ
أَمْ غَمَامْ ضَحِكْتْ عَنْ بَرْدِ
أَمْ عَلَى الأَزْرَارِ مِنْ حُلْتَهَا
بَدْرُتَمْ فِي قَضِيبِ أَمْسَلِ
٣ بَابِي لِينْ لَهْ لَوْ أَنَّهُ
نُقْلَتْ عِطْفَتْهُ لِلخَلْدِ
لَا وَالْحَاطِ لَهَا سَاحِرَةٌ
نَفَثَتْ فِي الْقَلْبِ لَا فِي الْعُقْدِ
لَا طَلَبَتْ الشَّأْرِ مِنْهَا ظَالِمًا
وَأَنَا الْقَاتِلُ نَفْسِي بِيَدِي !
٦ نَظَرْتْ عَيْنِي لِحَيْنِي نَظَرَةً
أَخْذَتْ رُوحِي وَخَلَتْ جَنْدِي (١)
هَاتِهَا بِاللَّهِ فِي مَرْضَاتِهَا
فَهَوَّا فِيهَا شَفَاءُ الْكَمْدِ

(*) الوفي (النسخة التيمورية) : ٥٢.

(١) الحين : الملائكة .

عُصِرت باللطف في عصر الصبا
 فرمت بالمسك لا بالزبد
 ٩ ما ذر مديراً في كأسها
 - وهي مثل البارق المتقد
 دُرَّة ضمَّت على ياقوته
 أم لجين فيه ثوب عسجدي
 سقني غبَر ملِيم إنني
 حنفي الرأي والمعتقد!
 ١٢ لا أرى بالسكر إلا من هو
 أو هبات الملك المؤيد
 مَلِك العاليا ولو أنصفته
 ففتحت اللام لم أفتَ^(١)

(١) يزيد ملك (بنفتح اللام).

قال صاحب الكتاب (كتاب الوفي) : ولما بُويع بالحضره
النصرية بولايـه العـهد الأمـير المعـظم أمـير المـسلمـين - أـيدـه
الـلـه - واقتـرنـ بـذـلـك مـولـدـ اـبـنه الأمـير المعـظم - أـسـعـده اللـه -
قلـتـ فيـ ذـلـكـ فـي عـرـوـضـ قـصـيـدةـ أـبـيـ الطـيـبـ (*).

مَنْ الظِّبَاءُ تَرُوعُ الْأَسْدَ بِالْمُقْلِ
وَمَا رَمَتْهَا بِغَيْرِ الْغُنْجِ وَالْكَحْلِ
مِنْ كُلَّ رَوْدٍ تَرُدُّ الْبُسْمَرَ مَشْرِعَةً
وَمَا أَنْقَهَا بِغَيْرِ الْحَلْيِ وَالْحَلْلِ (١)
٣ وَرَبِّمَا أَفْدَمْتُ وَالْخَيْلُ مُحَجَّمَةً
فَتَطْعَنُ الْطَّعْنَةُ النَّجَلَ بِالنَّجَلِ (٢)
تَلْكَ الشَّمُوسُ الَّتِي قَدْ أَطْلَعْتُ فَزْحًا
أَذِي الْهَنَّ وَلَا غَيْمَ سِوَى الْكَلَلِ (٣)
يُرِيكَ شَرْحَ الصَّبَا مِنْهُنَّ رَأْدٌ ضَحْيٌ
وَهَنَّ مِنْ مُذَهَّبَاتِ الْعَصْبِ فِي أُصُلِّ (٤)

(*) قصيدة الرندي معارضـةـ لـقصـيـدةـ المـتنـيـ التيـ مـطـلـعـهاـ :

أـجـابـ دـمـعـيـ وـمـاـ الدـاعـيـ سـوـىـ طـلـلـ

دـعاـ فـلـبـاهـ قـبـلـ الـخـيـلـ وـالـإـبـلـ . (١) في القاموس : الرئـدةـ والرؤـودـةـ الشـابـةـ الحـسـنةـ .

(٢) النـجـلـ (بالـتـحـريـكـ) سـعـةـ الـعـيـنـ .

(٣) الكلـلـ جـ كـلـهـ : السـترـ الرـقـيقـ .

(٤) رـأـدـ الضـحـيـ : اـرـتفـاعـهـ . وـأـصـلـ جـعـ اـصـيلـ .

٦ كم للجمال بها من آية تُليت
 على المُحبّ فجلّت شبهة العَذلِ
 وقضب بان على كثب لها زهرٌ
 يُسقى - ولا ظمأً - بالأدمغ الهمُلِ
 خفت لها وُشح جالت على هيـفٍ
 فوقرتها من الأرداد بالثقلِ

٩ ونظرة يُشتفي منها بشانيةٌ
 كما تداویت بالصهباء من ثملٍ!
 بعث الحياة بها من لحظ جاريـةٌ
 إذا رأـت فـحداراً من بـني ثـعلـ(١)
 ولـى عـرـائـي مـن أـجـفـانـها فـرقـاً
 كـائـناً هـو عـمـرـو وـهـي سـيفـ عـلـيـ!

١٢ ولـيلـة بـالـلـوـى ما كـان أـطـيـبـها
 زـالـت مـعاـهـدـها وـالـعـهـدـ لم يـزـلـ
 بـتـنـا نـسـاقـي المـنـى وـالـأـنـسـ ثـالـثـاـ
 وـالـرـاحـلـ من شـنـبـ والنـقـلـ من قـبـلـ(٢)

(١) بنو ثعل حي من أحياء العرب، وهم الذي عناهم أمرؤ القيس بقوله: رب رام من بني ثعل خرج كفيفه من ستراه

(٢) الشنب: عذوبة في الأسنان.

حتى بَدَتْ غُرَّةً للصُّبْحِ مُشْرِقَةً
 كمثل وَجْهِهِ وَلِي الْعَهْدِ يَوْمَ فَلِي
 15 يَا يَوْمَ سَعْدٍ كَانَ الْعِيدَ عَادَ بِهِ
 وَالنَّاسُ فِي مَرْحٍ وَالدَّهْرُ فِي جَذْلٍ
 شَهِدْتُهُ، فَرَأَيْنَا الْأَرْضَ قَدْ بَهَرَتْ
 وَالشَّمْسُ قَدْ سَرَّتْ وَجْهًا مِنَ الْخَجْلِ
 وَلِلْطُّبُولِ بِهِ حَفْقٌ يُسَاجِلُهُ
 خَفْقُ الْبَنْوَدِ عَلَى الْبَغْطُيَّةِ الدَّبْلِ
 18 وَكُلَّ أَشْوَسَ سَاجِي الْطَّرفِ مِنْ أَدْبِ
 يَهُوي لِلثَّمِ بِدِ أَشْهَى مِنَ الْأَمْلِ
 وَيَجْتَلِي غُرَّةً بِالْإِشْرِ مُشْرِقَةً
 كَمَا تَجَلَّتْ إِيَاهُ الشَّمْسُ فِي الْحَمْلِ^(۱)
 لِلَّهِ لِلَّهِ مِنْ عِيَدِينَ فِي نَسْقٍ
 لِهَذِهِ الدُّولَةِ الْغَرَاءِ فِي الدُّولَ
 21 أَهْلًا بِذَا الْوَلِدِ الْمِيمُونِ مُولَدَهُ
 وَالصَّارِمِ الْمُتَنْبِضِي مِنْ أَكْرَمِ الْخَلْلِ
 أَهْلًا بِذَا الْمَلِكِ النَّصْرِيِّ مُحِيطَهُ
 وَالْفَارِسِ الْبَطْلِيِّ بْنِ الْفَارِسِ الْبَطْلِ

(۱) إِيَاهُ الشَّمْسِ: نُورُهَا وَحْسَنَهَا.

وبيعة عَقِدْتُ وَالسَّعْدُ يُسَعِّدُهَا
فَمَا تَرَى فِي خَلَالِ الْأَمْنِ مِنْ خَلْلِ
24 عَلَى تَقْلِيدِهَا أَوْلَى الْأَنَامِ بِهَا
وَوَارثُ الْمَجْدِ مِنْ آبَائِهِ الْأَوَّلِ
الْفَاعِلُ الْفَعْلُ لَا يُغَزِّي لَهُ خَطَا
وَالْقَاتِلُ الْقَوْلُ لَا يُؤْتَى مِنَ الْخَطْلِ
مُحِبِّي الْفَرِيقَيْنِ مِنْ دِينِنَا وَمِنْ أَدَبِ
وَقَاتِلُ الْقَاتِلَيْنِ: الْجُبْنُ وَالْبَخْلُ
27 وَبَاعَتِ الْجَيْشُ بَعْدَ النَّذْرِ مُتَّهِداً
فِي شَتِّي وَهُوَ فِي ثَانٍ مِنَ التَّفَلِ
مَا نَامَ عَنْ بَأْسِهِ قَوْمٌ عَلَى غَرَرِ
إِلَّا وَأَيْقَظَهُمْ طَيفٌ مِنَ السَّوَاجِلِ
وَلَا اتَّضَنَى عَزْمَةُ سَيْفًا لِهَيْتِهِ
إِلَّا تَغْلَفَلَ فِي الْأَحْشَاءِ كَالْغَلَلِ
30 وَلَا هَمَنْ جُودَةُ مِنْ سُخْبِ أَنْمَلِهِ
إِلَّا وَأَغْنَتْ أَيْادِيهِ عَنِ السَّبِيلِ
صَفَاتُ مَلِكٍ صِفَاتُ الْمَكْرَمَاتِ لَهُ
كَالنَّعْتِ، كَالْعَطْفِ، كَالْتَوْكِيدِ، كَالْبَدْلِ
وَخُلُقُّ مِنْ خُلُقَتْ لِلْسَّعْدِ غُرْتَهُ
وَلِلْعُلَى يَدَهُ، وَالْجُودِ، وَالْقُبْلِ

33 كالغيثٍ لكنها نفع بلا ضرٍ
 كالبحرِ لكنها أخلٍ من العسلِ
 كأنَّ راحتهُ روضٌ؛ ولا زهرٌ
 غير اليراعِ بها والبيضِ والأسلِ
 من أصفرِ حبهِ للمجدِ أنحلَّهُ
 فلو برأَهُ الهوى ما شاءَ لم يُحلِّ
 36 أخو الرُّدَيْنِيُّ من شُكْلٍ ومَكْرُمَةٍ
 وربما طالَهُ فِعْلًا ولم يُطُلِّ
 وأبيض صبغٍ من ماءٍ ومن لَهْبٍ
 على اعتمالٍ فلم يجْمَدْ ولم يسْلِ
 ماضٍ العذارِ يهابُ الغمر^(١) صولاته
 كأنما هو مَطْبُوعٌ من الأجلِ!
 39 أبهى من الوَصْلِ بعد الهجرِ مُنْظَرٌ
 حُسْنًا وأقطع من بَيْنِ على مَللِ
 وأسمر ظنَّ ماءَ كُلَّ سابقةٍ
 فحاصرَ كالأَيْمِ يَشْتَقِي من النَّهَلِ^(٢)
 هام الكماءُ به حُبًّا ولا عَجَبٌ
 من لوعةٍ بملحِ القَدْ مُغَتَّلٍ

(١) الغمر (بالضم) الذي لم يجرِب الأمور.

(٢) الأَيْمِ: الأَفْعُلِ.

42 إِذَا طُعِينُ تَلْقَاهُ فَأَرْعَفْهُ

حَسِبَتْهُ عَاكِفًا يَنْكِي عَلَى طَلْلٍ

يَا ابْنَ الْهُمَّامِ الَّذِي لَهُ حُلَّى حَسْنَتْ

بِهَا الْإِمَارَةُ حُسْنَ الْمَدْحُ بِالْغَرَزَلِ

وَمَنْ لَهُ كَرْمٌ رِّيشَ الشَّتَاءِ بِهِ

فَطَارَ حَتَّى سَرَى فِي الْأَرْضِ كَالْمَثَلِ

45 أَهْنَا بِهَا نِعْمًا فِي إِثْرِهَا نِعْمًا

وَسَرَّ وَاسْمُ وَصِلْ وَجْدُ وَسُدُّ وَصِلْ

وَخَذْ إِلَيْكَ حُلَّى فَصَلَّتْهَا حُلَّلًا

الْفَضْلُ فِيهَا لِتَلْكَ الْمَكْرُمَاتِ، وَلَيِّ

وَاسْتَقْبِلِ السُّعْدَ بِالْبُشْرِيَّةِ طَلَعَتْ

وَابْلَغْ بِتَلْكَ الْعُلَى مَا شَفَتْ مِنْ أَمْلٍ

قال أيضاً:

وليل صَبَابَةُ كالدَّفْرِ طُولاً
تنَكُّرَ لِي وَغَرْفَهُ التَّمَامُ

3 كأن سماءه روض تحلّى
بزهر الزهر، والشَّرقُ الْكِمام
كأن البدر تحت الغيم وجه
عليه من ملائِكتِه لشام

كأن الكوكب الدُّرِّي كأس
وقد رقَ الزُّجَاجَةُ والمُدام
كأن سطورَ أفلالِك الدَّراري
قسيٌ والرُّجوم لها سهام^(١)

6 كأن مدارَ قطبِ بناتِ نعش
نديٌ والنُّجوم به ندام^(٢)
كأن بناته الكبرى جوارٍ
جوارٍ والسُّهْمِي فيها غلام^(٣)

(١) قسي جمع قوس.

(٢) ندام جمع نديم.

(٣) السها كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

كأن بناته الصغرى جمان
على لباتها منه نظامٌ
٩ كواكبٌ بُتُّ أرعamen حتى
كأني عاشق وهي الذمام
إلى أن مزقتْ كفُ الثريا
جيوبَ الأفق وإنجابَ الظلامُ
فما خللتْ اتصداعَ الفجر إلا
قراباً ينتضي منه حسامٌ
١٢ وما شبَّهتْ وجْهَ الشّمس إلا
بوجهِك أيها الملكُ الهمامُ
وإن شبَّهته بالبذر يوماً
فللبذر الملاحَة والتمامُ

وقال أيضاً:

علّاني بذكر تلك الليالي
وعهود عهدها كاللالي
لست أنسى للحُب ليلة أنسٌ
صال فيها على النوى بالوصالٍ

3 غفل الدهر والرقيب وينينا
فعجبنا من اتفاق المُحال
ضمّنا ضمّة الوشاح عنانٌ
بِيمين معقودة بشمالٍ

فبردت الحشا بلثم بروءٍ
لم يزل بي حتى خبالي «خبالي»
6 وكؤوس المدام تجلو عروسًا
اضحك المزج ثغرها عن لآلٍ

ولنخر الدجى ذوابل شمعٍ
عكست في الزجاج نور الذبالٍ^(١)
والثرياء تمد كفأ خضيباً
أعجمت بالسماك نون الهلال

(١) الذبال ج الذبالة: القتيلة (للمصباح وغيره).

٩ وَكَانَ الصُّبَاحُ إِذَا لَاحَ سِيفُ
يُنْتَضِي مِنْ غَيْنٍ وَمِيمٍ وَدَالٍ
وَمَسْخَتَا الْكَرَى إِلَى غَانِيَاتٍ
غَانِيَاتٍ يَكُلُّ سِحْرُ حَلَالٍ
فِي رِيَاضٍ تَبَسَّمَ الرَّزْهَرُ فِيهَا
لَغَمَامٌ بِكُثْرَةِ دُمُوعِ دَالٍ
وَجَرَى عَاطِرُ التَّسِيمِ عَلَيْهَا
يَتَهَادِي بَيْنَ الصُّبَا وَالشَّمَالِ
١٢ فَانْتَسَى النَّهَرُ لَامَةً مِنْهُ لِمَا
أَنْ رَمَى الْقَطْرُ نَحْوَهُ بِتَبَالٍ
يَا لِيَالِي مُنْئِي سَلَامٌ عَلَيْهَا
أَتَرَاهَا تَمُودُ تَلَكَ الْلِيَالِي؟

[٦]

وقال أيضاً:

ما ضرَّ مَنْ يُمْنَعُنِي قُرَبَةُ
 لوجَاءُ فِي الْهَجْرِ بِمَا يَقْرَبُ
 ما ضرَّةٌ - وَالْأَمْرُ فِي حُكْمِهِ -

لوقِيلِ الرَّغْبَةِ إِذَا يَرْغَبُ
 ٣ أَخْبَرَ عَنِي حِينَ لَا جِنْلَةُ
 فَصَارَ وَجْدِي مَثَلًا يُضْرَبُ
 عَجِبْتُ لِلصَّبْرِ عَلَى صَدْهِ
 لَكِنْ غَيْشِي بَعْدَهُ أَعْجَبْ
 الْجَوْزُ مِنْهُ وَلَهُ الْمُشَتَّكِي
 وَالْعُذْرُ مِنِي وَهُوَ الْمُذْنِبُ
 ٤ رَضِيَتُ بِالْأَمْرِ عَلَى حَالِهِ .
 فَلَيْتَ شِعْرِي مَا لَهُ يَغْضَبُ؟

[٧]

وقال أيضاً:

قطَعَ قَلْبِي بِصَدَّهِ قِطَعاً
 وَإِنَّمَا ضَرَّنِي وَمَا انتَفَعَا

وَغَرْنِي أَوَّلًا بِوَضْلَتِهِ
 وَعِنْدَمَا لَذَّ وَضْلَهُ قَطَعاً
 ٣ وَمَرَّ عَنِي لِمَا شَكُوتُ لَهُ
 كَائِنَةُ مَا رَأَى وَمَا سَمِعَا
 وَأَكْبَدِي - لِوَتْفِيدِ «وَأَكْبَدِي»
 لَمْ يَتَرَكِ الدَّهْرُ فِيهِ لِي طَمَعاً
 يَا لَيْتَ قَلْبِي الَّذِي وَهَبْتُ لَهُ
 يَرْجِعُ لِي الْيَوْمَ كَيْفَمَا رَجَعَا!

[٨]

وَقَالَ أَيْضًا :
 يَا سَالِبِ الْقَلْبِ مَنِي عِنْدَمَا رَمَقا
 لَمْ يُبْقِ حُبُّكَ لِي صَبِرَأَ وَلَا رَمَقا
 لَا تَسْأَلِ تَلِيَوْمَ عَمَّا كَابَدْتُ كَبْدِي
 لَيْتَ الْفَرَاقَ وَلَيْتَ الْحُبَّ مَا خَلَقَا
 ٣ مَا بِاختِيَارِي دُقْتُ الْحُبَّ ثَانِيَةً
 وَلَئِنْمَا جَارِتِ الْأَقْدَارُ فَاتَّفَقا
 وَكُنْتُ فِي كَلْفِي السَّدَاعِي إِلَى تَلْفِي
 مِثْلَ الْفَرَاشِ أَحَبُّ النَّارَ فَاحْتَرَقا

يَا مَنْ تَجَلَّى إِلَى سَرِّي فَصَيَّرْنِي
دَكَّاً وَهَرَّ فُؤَادِي عِنْدَمَا صَعَقَاهُ
٦. اُنْظُرْ إِلَيَّ فَإِنَّ النَّفَسَ قَدْ تَلَفَّتْ
وَارْفُقْ عَلَيَّ فَإِنَّ الرُّوحَ قَدْ رَهَقَاهُ^(١)

[٩]

قال الرُّندي : ولِي «مربعة»

١. كَمْ دُعَيْنَا لِغَيْرِكُمْ فَأَبَيْنَا
وَضَحِّكْتُمْ تَدْلُلًا فَبَكَيْنَا
يَا قُسَّاءَ الْقُلُوبِ رِفْقًا عَلَيْنَا
مَا خَلِقْنَا بَيْنَ الْأَنَامِ حَدِيدًا
٢. يَا قُدُودَ الْفُصُونِ عِنْدَ التَّشْنِي
مَا لَكُمْ فِي عَذَابِنَا بِالْتَّجْنِي
قَدْ قَنْعَنَا حَتَّى نَسِينَا التَّمَنِي
وَخَضَعَنَا حَتَّى بَسْطَنَا الْخُدوْدَا
٣. كَمْ شَكْوَنَا إِلَيْكُمْ لَوْرَحْمَتْ
وَعَلِمْتُمْ مِنْ حَالِنَا مَا عَلِمْتُمْ
كُلَّ يَوْمٍ نَزِيدُ حُبًا وَأَنْثُمْ
لَا تَزِيدُونَ فِيهِ إِلَّا صُدُودَا

(١) زَهَقَ نَفْسَهُ، وَرَوْحَهُ : خَرَجَتْ.

٤ آه من ضيَّعَةِ الْقُلُوبِ لِدِيكُمْ
 حَسْبُنَا أَنْ نَفَرَ مِنْكُمْ إِلَيْكُمْ
 مَا لَنَا فِي الْهَوَى اخْتِيَارٌ عَلَيْكُمْ
 غَايَةُ الصَّبْرِ أَنْ يَمُوتَ شَهِيدًا
 يَا عُقُودًا قَدْ نُظْمِتْ وَسُلُوكًا
 مَا وَجَدْنَا إِلَى سِواهَا سُلُوكًا
 قَدْرَ اللَّهِ أَنْ تَكُونُوا مُلُوكًا
 وَقَضَى : نَحْنُ أَنْ نَكُونَ عَبِيدًا!

[١٠]

وَقَالَ أَيْضًا :
 أَيَا أَصْلَعَا حَرْمَهَا يَلْهَبُ
 وَيَا أَدْمَعَا دَرَمَهَا يُنْهَبُ
 عَجِيبٌ لِعُمُرِكَ شَانِ الْهَوَى
 وَلَكِنْ صَبْرِي لَهُ أَغْبَبُ
 ٣ وَلَمْ أَرْ كَالْحَبَّ بِإِعْذَالِي
 عَذَابًا، وَلَكِنْهُ يَغْذَبُ
 وَلَا كَالْحَبِيبِ وَخَذْلَانِ
 يَزِيدُ صَدُودًا إِذَا يُرْغَبُ !

يَرِى أَنْ ذَنْبِي حُبِّي لَهُ
 بِعِيشِكَ قَلْ لِي؛ مَنِ الْمَذْنُبُ؟
 ٦ وَلَسْتُ بِسَالِ كَمَا يَدْعُونِ
 وَلَا مِنْ حَدِيدٍ كَمَا يَحْسِبُ
 إِذَا كُنْتُ أَرْضِي بِمَا شَاءَهُ
 فَبِإِرْبٍ مَا بِالْهُ يَغْضُبُ؟
 إِذَا كَانَ قَلْبِي جَنِي مَا جَنِي
 فِي الْهَفَّ نَفْسِي مَنْ أَطْلَبُ؟
 ٩ وَإِنْ كَانَ هَذَا بِحُكْمِ الْقَضَا
 فِي الْلِيتَ شِغْرِي مَنْ أَعْتَبُ؟

[١١]

قال: «وَمِنْ حَسْنِ مَا قِيلَ فِي وَصْفِ الْجَيْشِ وَالْخَيْلِ
 وَالسَّلَاحِ قَوْلِي»:

وَكِتْبَةُ بِالْذَّارِعَيْنِ كِثِيفَةٌ
 جَرَّتْ خَيْوَلَ الْجَحْفَلِ الْجَرَّارِ^(١)
 رَوْضُ الْمَنَابِيَا قُضِبُهَا السُّمْرُ التِّي
 مِنْ فَوْقِهَا الرَّايَاتُ كَالْأَزْهَارِ^(٢)

(١) رَجُلٌ دَارِعٌ: عَلَيْهِ درع.

(٢) السُّمْرُ: الرَّماح.

3 فيها الكِمَاةُ بنو الكِمَاةِ كَانُوكِمْ
 أَنْدُ الشَّرِي بَيْنَ الْقَنَى الْخَطَارِ
 مَتَهَلَّكِينَ لَدِي الصِّيَاحِ كَانُوكِمْ
 خَلِقْتُ وجوهَهُمْ مِنَ الْأَقْمَارِ
 6 مِنْ كُلِّ لَيْلٍ فَوقَ بَرِّي خَاطِفِ
 بِيَمِينِهِ قَدَرٌ مِنَ الْأَقْدَارِ
 مِنْ كُلِّ مَاضٍ يَنْتَصِبُهُ مُثْلُهُ
 فَيُضْبِطُ آجَالًا عَلَى الْأَعْمَارِ
 لَبِسُوا الْقُلُوبَ عَلَى الدُّرُوعِ وَأَشْرَعُوا
 بِأَكْفَهُمْ نَارًا لِأَهْلِ النَّارِ⁽¹⁾
 وَتَقْدِمُوا وَلَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ
 حَنْقُ الْعِدَا وَحَمَيْةُ الْأَنْصَارِ⁽²⁾
 9 فَارَاتَعَ نَاقُوسُ لَخْلَعِ لِسَانِهِ
 وَيَكِي الصَّلِيبُ لَذَلِكَ الْكُفَّارِ
 ثُمَّ انشَنَوْا عَنْهُ وَعَنْ عُبَادَاهُ
 وَقَدْ اصْبَحُوا خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ!

(1) تكرر هذا المعنى عند الشاعر في قصيدة أخرى.

(2) كذا (العد) في الأصل.

وله تهئة بثلاثة أشياء، في بيت واحد: عيد، وإسلام
وإياب.

أفاق لِمَا أَفْقَتِ الْجُودُ وَالْأَدْبُ
وَهُنْيَّةُ الْمَجْدِ إِذْ هَنَّيْتِ وَالْحَسْبُ
يَا لَمْحَةً أَطْلَعَ الْعَيْدَ السَّعِيدَ لَهَا
وَجْهًا مَكَانَ هَلَالٌ الْعَيْدُ يُرْتَقِبُ
٣ وَحْلَةً بِطَرَازِ الْحُسْنِ قَدْ رُقِمَتْ
لَا يُرْقِمُ الشَّوْبُ إِلَّا وَهُوَ مُشَخَّبٌ
إِنْ كَانَ قَدْ هَرَّ ذَاكَ الْعَطْفَ مِنْ أَلْمِ
فَمِنْ أَقْلُ نَسِيمٍ تَنْثَنِي الْقُضْبُ
أَوْ بَأَنْ فِيكَ شَحْوَبٌ رَاقِ رَوْنَقٌ
فَلَسْتَ إِلَّا لَجَنِينَا مَسْئَهُ ذَهَبٌ
٦ صَحَّتْ بِصَحْنَكِ الْعَلِيَا وَرَزِّيَتِ الدُّنْلَهُ
يَا فِإِنْ رَهِيَتْ عَجَباً فَلَا عَجَبٌ
فَاهْنَا بَعِيدٌ سَعِيدٌ لَا نَظِيرَ لَهُ
يُذْعَنِي كَبِيرًا وَلَكِنْ بُرْؤَكَ السَّبْبُ!
وَانْعَمْ بِنَعْمَةِ إِقْبَالِ الْوَزِيرِ وَقَدْ
يُذْعَنِي كَبِيرًا وَلَكِنْ بُرْؤَكَ السَّبْبُ!

وَلَنْعَمْ بِنْعَمٍ إِقْبَالِ الْوَزِيرِ وَقَدْ
قُضِيَ لِهِ الْيَمْنُ وَإِلَيْقَابَلْ مَا يَجْبُ
وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَعْيُّلْ أَنْتَ نَسَقاً
إِذْ عَادَ عِيدَ، وَصَحَّ ابْنُ، وَعَادَ أَبُّا

وقال يستنجد ببني مرين، وقبائل المرغوب بخاصة،
وسامي النداء من المسلمين وراء بحر الزقاق بعامة، ويدعو
إلى الجهاد، ويرثي ما ضاع من بلاد الأندلس^(٤):

لَكُلُّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانٌ
 فَلَا يُفَرِّجُ بِطْبَىْنِ الْعِيشِ إِنْسَانٌ
 هِيَ الْأَمْوَارُ كَمَا شَاهَدَهَا دُولٌ
 مَّنْ سَرَّهُ زَمْنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانٌ^(١)
 ۳ وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَىٰ أَحَدٍ
 وَلَا يَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ لَهَا شَانٌ
 يُمْرَّقُ الدَّهْرُ حَتَّمًا كُلُّ سَابِقَةٍ
 إِذَا نَبَّتْ مَشْرِيفَاتٍ وَخُرَصَانُ^(٢)

(٤) أنسد الرندي القصيدة بعد تحالف إسبانيا والبرتغال وأرغون، وتنازل ابن الأحرر عن عدد كبير من المدن والمحصون - راجع الفصل الأول، من هذا الكتاب، وفقرة الجهadiات من الفصل الثالث.

(١) دال الزمان: انقلب من حال إلى حال، ودول ح دولة: انقلاب الزمان.

(٢) السابعة: الدرع الكاملة. المشريفات: السيف المنسوية إلى المشارف، مشارف الشام: قرى من أرض العرب تدño من الريف. والخرسان جمع خرسن: الرمح.

وَيَتَضَيِّقُ كُلَّ سَيْفٍ لِّلْفَنَاءِ وَلَوْ

كَانَ ابْنَ ذِي يَزْنَ وَالْغَمْدِ غِمْدَانُ^(١)

٦ أَيْنَ الْمُلُوكُ ذُؤُو التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ

وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتِيجَانُ^(٢)

وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَّادُ فِي إِرْمٍ

وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ^(٣)

وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونَ مِنْ ذَهَبٍ

وَأَيْنَ عَادُ وَشَدَّادُ وَقَحْطَانُ^(٤)

٩ أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرًا لَا مَرَدَ لَهُ

حَتَّى قَضَوْا فَكَانَ الْقَوْمُ مَا كَانُوا

وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ

كَمَا حَكِيَ عَنْ خَيَالِ الطَّيْفِ وَسُنَانٍ

(١) سيف من ذي يزن من ملوك اليمن، وغمدان قصر كان له.

(٢) انظر «أذواء اليمن» في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للتعاليبي - ٢٧٩

(٣) وفي اللسان: الذوون الأملاك الملقبون بذو كذا كقولك ذو يزن وذو رعين وذو فائش... وهم ملوك اليمن من قضاعة، وهم التابعة.

(٤) قيل في إرم أقوال منها أنها دمشق والاسكندرية، ونقل البكري أنه «وجد بالاسكندرية حجر نقش فيه أنا شداد بن عاد الذي نصب العماد...» وساسان أبو طائف عظيمة من ملوك الفرس.

(٥) نقل المفسرون في قارون أقوالاً منها أنه «كان غنياً عاماً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم» راجع تفسير القرطبي ١٣ :

دَارَ الزَّمَانُ عَلَى دَارَهَا وَقَاتِلُهُ
 وَأَمْ كَسْرَى فَمَا آتَاهُ إِيَّوَانُ^(١)
 ١٢ كَانُوا الصَّفْبُ لَمْ يَتَهَّلْ لَهُ سَبْبُ
 يَوْمًا وَلَا مَلْكَ الدُّنْيَا سُلَيْمَانُ
 فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْوَاعُ مَنْوَاعَةُ
 وَلِزَمَانٍ مَسَرَّاتٍ وَأَحْزَانٍ
 وَلِلحوادِثِ سُلَوانٌ يُهَوِّنُهَا
 وَمَا لِمَا حَلَّ بِالإِسْلَامِ سُلَوانٌ
 ١٥ دَهْنَى الْجَزِيرَةَ أَمْرًا لَا غَزَاءَ لَهُ
 هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَانهَى نَهَلَانُ^(٢)
 أَصَابَهَا الْعَيْنُ فِي الإِسْلَامِ فَارْتَزَّتْ
 حَتَّى خَلَّتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وَبِلَادٌ
 فَاسْأَلْ بِلَنْسِيَّةِ مَا شَاءَ مُرِيسَيَّةٌ
 وَأَيْنَ شَاطِبَةٌ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ^(٣)

(١) هو دارا الأصغر قتلته أصحابه في معركته مع الاسكندر. والإيوان هو إيوان كسرى الذي بالمدائن.

(٢) الجزيرة: جزيرة الأندلس. أحد جبل قريب من المدينة. ونهلان جبل باليمن.

(٣) بلنسية ومرسيه وشاطبة من مدن شرق الأندلس - وجيان وقرطبة من مدن متوسطة الأندلس.

18 وأين قُرطبة دار العلوم فكم
 من عالم قد سما فيها له شأن
 وأين حِمْصَ وما تحويهِ مِنْ نُزَّهِ
 ونَهْرُها العذب فَيَاضُ ومَلَانُ^(١)
 قواعِدُ كُنْ أركانَ الْبِلَادِ فَمَا
 عَسَى البقاءً إِذَا لم تَبْقَ أَرْكَانُ؟

21 تبكي الحنيفةُ البيضاءُ من أسفٍ
 كما بكى لفراقِ الإِلْفِ هَمْيَانُ^(٢)
 على ديارِ من الإسلامِ خاليةٌ
 قد أسلمتُ ولها بالكفرِ عمرانُ
 حيث المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما
 فيهنَّ إِلا نُواقيسٌ وصلبانُ
 24 حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةً
 حتى المنايرُ ترثي وهي عيدانُ
 يا غافلًا وله في الدهرِ موعظةٌ
 إن كنتَ في سنةٍ فالدهرُ يقطانُ
 وماشياً مَرحاً يُلهيَهُ موطنُهُ
 أبعد حمصٍ تَغُرُّ المرأةُ أو طانُ؟!

(١) حمص هي مدينة إشبيلية، سميت بذلك لنزول جند حصن الشام (من طالعة بلج بن بش) بها. وتقوم إشبيلية على نهر الوادي الكبير.

(٢) الحنيفة: الإسلام.

27 تلك المصيبة أئشت ما تقدّمها
 وما لها مع طول الدّهر نسيان
 يا أيها الملك البيضاء رأيتك
 أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا^(١)
 يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
 كأنها في مجال السُّبْق عقبان
 30 وحاملين سيفاً الهندي مرهفة
 كأنها في ظلام النّقْع نيران
 وراتسين وراء البحري في دعنة
 لهم بأوطانهم عز وسلطان^(٢)
 عندكم نباً من أهل أندلس
 فقد سرى بحديث القوم ركبان
 33 كم يستغيث بنو المستضعفين وهم
 أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
 ماذا التَّقاطع في الإسلام بينكم
 وأنتم يا عباد الله إخوان؟
 لا نفوس أية لها هم
 أما على الخير أنصار وأعون

(١) انظر فقرة «الجهاديات» من الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢) المقصود بالبحر هنا بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) وهو المعبر - عادة - بين البلدين، على أن هناك طرقاً أخرى بين العدويتين أطول.

٣٦ يَا مَن لِذْلِكَ قَوْمٌ بَعْدَ عِزْمٍ
 أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرًا وَطُغْيَانٌ
 بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ
 وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بَلَادِ الْكُفْرِ عَبْدَانُ^(١)
 فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ
 عَلَيْهِمْ مِنْ نِيَابِ الذُّلُّ الْوَانُ
 ٣٩ وَلَوْ رَأَيْتَ بِكَاهِمْ عَنْدَ بَيْعَمْ
 هَالَّكَ الْأَمْرُ وَاسْتَهْوَنَكَ أَحْزَانُ
 يَا رَبُّ أُمِّ وَطَفْلِ حِيلَ بَيْنَهُمَا
 كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحُ وَأَبْدَانُ
 وَطَفْلَةٌ مَا رَأَتْهَا الشَّمْسُ إِذْ بَرَزَتْ
 كَائِنًا هَيَّ يَا قَوْتُ وَمَرْجَانُ^(٢)
 ٤٢ يَقْوُدُهَا الْمُلْجُ لِلْمَكْرُوِهِ مُكْرَمَةً
 وَالْعَيْنُ بَاكِيَةً وَالْقَلْبُ حَبْرَانُ^(٣)
 لِمَثْلِهِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ
 إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانٌ

(١) تَجْمَعْ عَبْدُ عَلِ عَبْدُ وَعَبْدَانُ، وَغَيْرُهُمَا.

(٢) الطَّفْلَةُ: الرَّخْصَةُ النَّاعِمَةُ.

(٣) مِنْ مَعَانِي الْمُلْجِ: الرَّجُلُ الضَّخْمُ مِنْ أَهْلِ الْعِجْمِ.

قال أبو البقاء الرندي:

دَعَنِي وَإِنْ قِيلَ: الْجَنُونُ فَنُونٌ
 فَالصُّبُّ مِثْلِي بِالْهَوَى مَفْتُونٌ
 بِأَبِي الْذِي أَشْكُو هَوَاهُ وَصَدَّهُ
 وَالصُّدُّ صَعْبُ الْهَوَى تَهْوِينٌ
 كَتَبَ الْجَمَالُ بِخَطْهُ فِي خَدِّهِ
 وَالْخَطُّ فِي حُسْنِ الْخُدُودِ يَرْزِينُ
 فَكَانَ رَقْمُ اللَّدِ مِنْهُ أَرْقَمُ
 وَكَانَ لَامُ بِهِ أَوْ نُونٌ
 كَابَذَتْ مَا كَابَذَتْ فِي حَتَّيِ لَهِ
 وَالْمَوْتُ فِي حَقِّ الْحَبِيبِ يَهْوِنُ
 وَعَدَا فَأَظْهَرَتْ التَّجْلِيدُ لِلْعِدَى:
 الْوَجْهُ يَضْحَكُ وَالْفَوَادُ حَزِينٌ
 أَبْكِي وَيَبْسُمُ؛ يَتَّسِعُ مَا يَبْيَنُ
 لَا يَسْتَوِي الْمَسْرُورُ وَالْمَخْرُونُ
 فَكَانَمَا هُوَ يُوسَفُ فِي حُسْنِهِ
 وَكَانَيِي مِنْ حُجَّهِ الْمَجْنُونُ!

قال أبو البقاء الرندي في قدوم من سفر:

يا ليلة الأنس كم أدنى من أمل
أشهى وأعذب من أمن على وجل
وكم تعللت باللقيا على شغفِ
وفي التعلل ما يشفى من العلل
ما زال يسُطني أ nisi ويقْبضُني
بعدِي، ويشفع لي شوقي، إلى خجلِي
حتى بلَغْتُ مُنْيَ ما كنتُ أحسبُها
ومن أكْدُ المُنْيَ وصلَ بلا عَذْلٍ
ولا كيوم لقائي للوزير أبي
عمرو وقد عادَ عَوْدَ الحي لسلَطَل
للله في وافِدِ سرُّتْ وفادَتْهُ
مبارِكِ السُّعْيِ في جَلِيلِ ومُرْتَحِلِهِ
سرُّتْ إلى الحَضْرَةِ الْعُلْيَا به هَمْ
سَرُّتْ مَكَارِمُهَا في الأرض كالمثلِ
إلى مقامِ جَلِيلِ زادَهُ شَرْفًا
إذ حَلَّ فيه حلولَ الشَّمْسِ في الحَمْلِ
ثم اثنَى عنهُ والأقدار تَحْفَظُهُ
والسَّعدُ يصْبَحُهُ ما شاءَ مِنْ أَمْلٍ

خُذْهَا إِلَيْكَ أَبَا عَمِّرٍ وَمَهْشَةً
 أَزْهَى مِنَ الْحُسْنِ فِي أَبَهَى مِنَ الْحُلْلِ
 عَذْرَاءَ قَدْ بَانَ فِيهَا عَذْرٌ حَاسِدِهَا
 إِذْ عَادِلُ الْمَدْحُ فِيهِ رَقَّةُ الْغَزْلِ!

[١٦]

قال أبو البقاء الرندي في وصف الأقحوان :
 إِذَا أَرَدْتَ لِوَصْفِ الْأَقْحَوَانِ فَقُلْ
 كَائِنًا هُوَ ثَغْرٌ فِيهِ دِينَارٌ
 وَمُقْلَةٌ مِنْ قَبْيَتِ الْبَرِّ مَحْكَمَةٌ
 لَهَا مِنَ الْفِضْلِ الْبَيْضَاءُ أَشْفَارٌ^(١)

[١٧]

قال أبو البقاء الرندي في وصف حب الملوك^(٢) :
 فَتَحَّلَّ الْحَبُّ نُورَةً فَخَسِبَنَا
 أَنَّ فِي الرُّؤْضِ قُبَّةً مِنْ شَقِيقٍ
 ثُمَّ أَخْرَى نُسَواَةً عَنْ سُلُوكِ
 مِنْ حَرِيرٍ فَصَوْصَعَ عَقِيقٍ !

(١) الأشفار: الأجناف.

(٢) هو المعروف عند المشارقة بالكرز. ولا يزال اسمه حب الملوك في المغرب العربي.

[١٨]

قال أبو البقاء الرندي في التفاح:

تُفَاخَةَ كَلْمِسِكَ تُفَاخَةَ
 يَضْبُولُهَا النَّاظِرُ وَالنَّاشرُ
 جَرَتْ بِهَا الْحُمَرَةُ فِي مُفْرَةٍ
 كَمَا التَّقَى الْمَغْشُوقُ وَالْعَاشِقُ!

[١٩]

قال أبو البقاء الرندي:

المرءُ شِبَهٌ خَيالٌ
 وَصُورَةُ الْعَيْشِ نَوْمٌ
 آخِرُ الْعَيْشِ مَوْتٌ
 وَجُملَةُ الْقُمْرِ يَوْمٌ

قال: ولما تُوفيَ أمير المسلمين - رحمة الله عليه - كتبت
إلى حضرة ولِي عهده ابنه أمير المسلمين - أبيه الله - معزيًا
ومهنيًا بالبيعة:

«المقامُ العليُّ السُّلطانيُّ المولويُّ - أطَالَ اللَّهُ بَقَاءُهُ -
وحلمه كالهضب لا يُستنزل، وحزمه كالغضب لا يُفلٌ^(١).
وبيت مجدِه لا نه: زمه النَّواب، وفعل سُعْدِه لا تجزمه
الشَّوائب.

أما بعد حَمْدِ الله الذي تعرَّفَ لعبادِه فُعرفَ وُعْدُه، وأنفذَ
أحكامُ مُراده فشَّيكَرَ وَحِمْدَه. والصلوة على سيدنا محمد أكرم
من ولد وأعز من فقد؛

فإنَّ خديم المقام الكريم المُمْتَسِك بعروته، المُعْتَصِم عند
الشدائد بحبوته ابن شريف. كتبه من رُنْدة - حرسها الله - عن
رَوع مَرْوع، وفؤاد مَضْدُوع. تقطَّع فاستحال نَجِيًعاً، وجرى
فصار مع الدُّموع دَمْوعاً. الخطب الفادح. والملمَّ الفادح.
والرُّزءُ الذي طاشَتْ له الأَحْلَامُ، وفجع فيه الإسلام. والنَّعي
الذي استَكَّتْ به المسَّاميَّعُ، وانهَلتْ له المَدامُ. بوفاة مولانا

(١) المضبة: الجبل المنبسط على الأرض، أو جبل خلق من صخرة واحدة.
والغضب: السيف.

الملك الْهُمَامُ الْأَوْحَدُ، الْأَرْفَعُ الْأَمْجَدُ، الْمُجَاهِدُ الْأَرْضِيُّ
 الأَسْعَدُ الْمَقْدِسُ الْمَرْحُومُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرُ
 الدِّينِ كَرَمُ اللَّهِ مَثَواهُ، وَنَفْعُهُ بِمَا أَوْلَاهُ . فَقَدْ كَانَ لِلْعَدْلِ إِمامًا،
 وَلِلَّذِينَ قَوَاماً، وَلِلْمُكَّنِ تاجًاً وَحُسَامًاً . إِنَّ كُوْثِرَ فَتَّبَعَ^(١) فِي
 حَمِيرٍ، أَوْ كُوْثِرَ فَمَا كَسْرِي وَقِصْرِ؟ أَوْ زُوْجِمَ فَرَضْوِي،
 وَثِمَامَ^(٢) أَوْ كُورِمَ فَمَا الْبَحْرُ وَالْغَمَامُ . هَذَا وَكُمْ مَقَامُ اللَّهِ
 قَامَهُ^(٣) وَغَمْرُ خَاصَّهُ، وَصَعْبُ رَاضَهُ . وَدَاءُ شَفَاهُ، وَدَعْوَ كَفَاهُ .
 وَكَرْبُ فَرْجَهُ . وَذَكْرُ بَعْدِهِ أَرْجَهُ^(٤) فَلَطَالِمَا جَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ
 جَهَادِهِ، وَأَجَهَدَ نَفْسَهُ التَّفِيسَةَ فِي اجْتِهَادِهِ . يَسْهُرُ لِتَنَامِ الْعَيْنَيْنِ،
 وَيَصْلُ الْحَرْكَاتِ لِيَتَصلَ السُّكُونُ، وَيُعَدُّ لِلْحَادِثِ وَلِعَلَهُ لَا
 يَكُونُ .

سِيَاسَةً شَدَّ لَهَا حِيَازِيمَ الْحَزْمِ^(٥)، وَرِيَاسَةً أَعْدَّ لَهَا صَبْرَ
 أُولَى الْعَزْمِ . إِلَى أَنْ حُمَّ حَمَامَهُ، وَتَقْضَى أَيَامَهُ . فَهُمَّ طَوْدَهُ
 الشَّامِخُ، وَطُوَيَّ مَجْدُهُ الْبَاذَنُ . وَأَصْبَحَ خَبْرًا يُذَكَّرُ، وَمُضَبِّرًا

(١) تَبَعَ وَاحِدُ التَّابِعَةِ وَهُمُ الْمُلُوكُ بِالْيَمِنِ وَنَوَاحِيهَا: «وَلَا يَسْمَى بِهِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ
 لَهُ حِيرَ وَحَضْرَمُوتُ» .

(٢) فِي الْقَامُوسِ: وَصَخْرَاتُ الشَّامِ إِحْدَى مَرَاحِلِهِ كَلَّا إِلَى بَدْرٍ .

(٣) جَلَةٌ لَمْ تَنْضَحْ فِي نَسْخَتِ الْوَافِيِّ .

(٤) الْأَرْجَ: تَوْهِيجُ رَبِيعِ الْطَّيْبِ .

(٥) الْحَيْزُومُ: مَا اسْتَدَارَ بِالظَّهَرِ وَالْبَطْنِ أَوْ ضَلَعَ الْفَوَادِ وَمَا اكْتَنَفَ الْخَلْقَوْمَ مِنْ
 جَانِبِ الصَّدْرِ .

لا يَظْهُرُ. كَانَ لَمْ يَكُنْ لِلْهُوَى جَبِينُهُ، وَلِلنَّدَى يَمِينُهُ: وَلِلنَّصْرِ
أَعْلَامُهُ، وَلِلْفَخْرِ أَقْلَامُهُ.

أَمَا وَمَاتُرَ ذَخْرُهَا لِلْفَخْرِ، وَأَبْقَاهَا كَالْوَحِي^(١) فِي الصَّنْخِرِ. لَوْ
أَنْ بَكَاءً يَشْفِي مِنْ وَجْدٍ، وَيَرَدَّ فَاثِتَّ مَجْدٍ؛ لَأَسْيَلَتْ عَلَيْهِ
الْدَّمْوعَ حُمْرًا، وَخُشِّبَتِ الْأَحْشَاءُ جَمْرًا، وَقُتِلَ مَا بَيْنَهُمَا الصَّبْرُ
صَبِرًا.

وَلَوْلَا حُسْنُ الْخَلْفِ مِنْ بَعْدِهِ، بِمَوْلَانَا وَلِي عَهْدِهِ، وَسَلِيلُ
مَجْدِهِ؛ لَقَلَّا ذَهَبَ الْبَأْسُ وَالْكَرْمُ، وَعُطِلَ السِّيفُ وَالْقَلْمَنْ.
وَغَاضَ مَاءُ النَّدَى، وَطَفَقَ مَصْبَاحُ الْهَدَى. وَلَكِنَّهُ مَا أَفَاتَ
مَجْدَهُ، مِنْ أَبْقَى مِثْلَ مَوْلَانَا بَعْدِهِ. وَلَا انْصَرَمَ شَرْفُهُ، مِنْ كَرْمِ
خَلْفِهِ. وَمَا عَدَمَ الْوَرْدُ وَقَدْ بَقِيَ مَأْوَهُ. وَلَا فُقدَ الْبَدْرُ إِذَا وَجَدَ
ضِيَاؤَهُ.

وَمَوْلَانَا أَحْسَنُ اللَّهِ عَزَّاءَهُ، وَضَاعَفَ جَزَاءَهُ، يَتَذَكَّرْ فَقَدَ
النَّبِيُّ ﷺ فِي تِمَاسِكِ فِي مَصَابِهِ، وَيَكْفَ عنْ أَوْصَابِهِ^(٢). وَمُثْلُ
حَلْمِهِ لَا يَسْتَرِلَهُ الْوَهْلُ، وَلَا يَسْتَخْفَهُ الْوَجْلُ. وَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ
غَايَةُ الْأَحْيَاءِ، وَنَقْلَةُ مِنَ الْفَنَاءِ إِلَى الْبَقَاءِ. فَمَا الْجُزْعُ عَلَى
فَقِيدِ أَعْدَ لِرَحِيلِهِ، ثُمَّ مَضَى لِسَبِيلِهِ. وَافْدَأْ عَلَى بَابِ الْكَرِيمِ،
حَسَنَ الظُّنُونَ بِالرَّبِّ الرَّحِيمِ. وَاللَّهُ يُجْعِلُ صَبْرَ الْمَوْلَى وَعَزَاءَهُ.

(١) الْوَحِيُّ: الْكِتَابَةُ.

(٢) الْوَصْبُ: الْمَرْضُ وَالْوَجْعُ.

ويجعل الأجر إزاءه. وهو سبحانه يطيل بقاءه، ويجعل السعد
وفاءه؛ بمنه.

وكتب مع ذلك:

ما جل خطب كمثل الحادث الجلل
فليقض حَقَّ الأسى بالآدمي الهمل
مُصابٌ من فجع الإسلام فيه ومن
سُكِّ المسامع منه هَذَا الجبل^(١)
ولأن تكون طاشت الأحلام من جزع
فليسبق العذر سبق السيف للعذل
يا حسرة الدين والدنيا على ملك
قد كان حسبهما لومد في الأجل
أصابه من وراء الحجب صائب
إن المنون لأزمى من بني ثعل
وزاول الملك ذهراً ثم فارقه
وزال عنه وذاك الفخر لم يرُل
تنصل الجيش منه حين أسلمه
وليس في الموت من حُولٍ ولا حِيل^(٢)

(١) سُكِّ المسامع: أصواتها.

(٢) تنصل من الشيء. خرج منه وتبرأ. وفي أصل المخطوط: تنصل فيه.

فالصَّيْدُ شَاكِهَةُ والخَيْلُ بَاكِيَةُ
 والرُّمْحُ ذُو وَجْلٍ والسَّهْمُ ذُو خَجْلٍ
 كم في العروبة من سَرِّ الْمُغْتَبِرِ
 صرنا إلى الوجد والمولى إلى الجَدَلِ
 مُضى لرحمَةِ مولاه وأنزلَه
 ما قدمته يداه أكرمَ النُّزُلِ
 كم غَمَرَةٌ خاصَّها والثَّغْرُ مُبْتَسِمٌ
 والموتُ يخْطُرُ بين الْيَنْسِينِ والأسْلِينِ
 وصعْبَةٌ راضَّها والحزْمُ مُعْتَصِمٌ
 والرأيُ ينْجُحُ بين القَوْلِ والعملِ
 وما عَسَى أَنْ يُمَدَّ القَوْلُ فِي مَلَكِ
 ما خَامَ عن كرمِ يَوْمًا ولا بَطْلِ^(١)
 وَلَا ازْدَهَتْهُ مُنْيٌ يَصْبُرُ الْحَلِيمُ لَهَا
 وَلَا سَبَّتْهُ ذَوَاتُ الأَعْيُنِ النُّجُلِ
 وَإِنَّمَا كَانَ وَالْعَلِيَاءَ تَحْفَظُهُ
 بِالْمُكْرُمَاتِ عَنِ الْلَّذَاتِ فِي شُغْلِ
 سَقْتَهُ مِنْ دِيمَ الرُّحْمَى مُفَضْفَضَةً
 تَمْلِئُهَا مُذْهَبَاتُ الْأَذْمَعِ الْهُمُولِ

(١) خَامَ عَنِ الْأَمْرِ: نَكْصٌ وَجِنٌ.

فكم شفى للظبا والسمير من غلٍ
 وكم شفى للعلى والمجد من عللٍ
 مولاي مولاي آلافاً مكررةً
 لو كان يُجدي نداء الوجود والوجل
 أصبحت فيما على حُكْم الرَّدِي خبراً
 فكنت كالضييف أو كالطيف في المثل
 كأن وجهك لم يُشرق لناظره
 كالبدر في السعد أو كالشمس في الحمل
 كأن كفتك لم تُبسط لآملها
 ...
 تبكي عليك وتفنى حشرة وأسى
 والدموع حيلة من يعنى عن الحيل
 والصبر أجمل لو يُلفي السبيل له
 وأي صابر لقلب غير مُحتمل؟
 يا وارث المجد والمُلُك الذي كرمت
 منه الخلال فما فيهن من خلل
 سلم لسا قد جرى حكم القضاء به
 فكل شيءٌ من الأشياء إلى أجل
 وما بُكا العين بعد الشيء نافعها
 وإنما طلل المفقود كالطلل

وأنت أكرم من يُعْزِّي العزاءَ لَهُ
 وأنت أثبُت عند الهول والوَهَل^(١)
 وإن مضى عنك مَوْلَى لا نظيرَ لَهُ
 فقد مضى المصطفى المختار في الرسل
 وإنَّهَا مُضْمِرًا عَنَّا فَأَنْتَ لَهُ
 كالنَّعْتِ، كالعَطْفِ، كالتوْكِيدِ، كالبَدْلِ
 وفي بقائك لِلإِسْلَامِ تَسْلِيَةُ
 وفي الأَوَّلِيَّةِ مَا يُشَلِّي عن الأَوَّلِ
 لَا زلت للْمُلْكِ وَالإِسْلَامِ تَنْصُرَةُ
 حَتَّى تُبَلُّغَ فِيهِ غَايَةَ الْأَمْلِ

(١) الوَهَل: الفزع.

قال الرُّندي: وقلت في رثاء أبي - رحمة الله:

دَعِ الْفُرُورَ فَمَا لِلْخَلِدِ مِنْ سَبِّ
 وَلَا قَرَارَ بِدَارِ اللَّهِ وَاللَّعِبِ
 يَا بَانِيَا لِقُصُورِ سَوْفَ يَتَرَكُهَا
 لِمَنْ سَيْمَلَكُهَا قَسْرًا بِلَا تَعْبِا
 وَطَالِبًا لِضَرُوبِ الْمَالِ يَجْمِعُهَا
 لِمَنْ سِيَاحِدُهَا عَفْوًا بِلَا طَلْبِ
 وَغَافِلًا أَبَدًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ
 أَسْرَفَتْ فِي غُلَوَاءِ الْغَيَّ فَائِشِ^(١)
 أَمَا تَرَى الدَّهْرُ لَا يُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
 أَيْنَ الْمُلُوكُ وَمَنْ صَانَهُ فِي الْحَجَبِ
 هُوَ الْحِمَامُ فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذِيرَ
 وَيْحَ الْمُسَوْفِ إِنْ أَوْدَى وَلَمْ يَتُبِّ
 يَا ابْنَ الشَّابِ أَفْئَ مِنْ خَمْرِ سَكْرَتِهِ
 كَمْ مِنْ فَتَنَ فَارَقَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشِّبِ
 وَيَا أَخَا الشَّيْبِ مَاذَا أَنْتَ مُسْتَظِرٌ
 خَذْ فِي الرُّحِيلِ فَقَدْ نُوَدِّيَتْ مِنْ كَثِيرٍ

(١) اتأب: خزي واستحياء.

لَا يَتْرُكُ الدَّهْرُ مَلُوكًا وَلَا مَلِكًا
وَلَا يُبَالِي الرَّدَى بِالجَحْفَلِ اللَّجَبِ
وَلَوْنَجَا مِنْهُ مَخْلوقٌ لَا ثَرَبَ
لَكَانَ فِيمَنْ نَجَا مِنَ الْجِمَامِ أَبِي . . .
يَا سَيِّدَا صَارَ بِطْنُ الْأَرْضِ مَسْكَنَةً
وَالرَّبُّ يَوْدَعُ فِيهِ خَالِصُ الدَّهْرِ -
لَمْ يَلْثِمْ الرَّبُّ إِجْلَالًا وَتَكْرَمَةً
إِلَّا لِمَوْضِعِهَا مِنْ خَدْكَ التُّرْبِ
وَلَا بَكَيْنَا وَنَحْنُ الصَّابِرُونَ دِمَاءً
إِلَّا لِشَدَّةِ مَا نَلْقَى مِنَ الْوَصْبِ
مَوْلَايَ مَوْلَايَ آلَافًا أَرَدَهُمَا
لَوْأَنَّهَا دُعْةٌ تَشْفِي مِنَ الْكُرَبِ
لَمْ يَقِنْ بِعَدْكَ لَيْ شَيْءٌ أَسْرُبَهُ
فَكَيْفَ بِعَدْكَ لَيْ فِي الْعِيشِ مِنْ أَرَبِّ؟

وقال في كتاب روضة الأنْس ونَزَهَةُ النَّفْسِ، عند ذكر
«الأندلس» من شعر ونثر:
الأندلس:

هي أخت الشَّام في خصِّها وجلالها، وضَرَّةُ العَرَاقِ في
بِهِجَتها وجمالها. وكان يقال: إن حَيَّها سعيد وميتها شهيد.
وذلك لأنَّ منصبها سُنيٌّ ومعتقدُها سُنيٌّ. مع ما خُصَّت به من
رَوْقَة مغانيها ورقة مغانيها، وخلُوْها من الفَيَافِي المُرْدِيَّةِ، ومن
السَّبَاعِ الْمُودِيَّةِ، وبالجملة فهي كما قال الخفاجي:

إن لِلْجَنَّةِ بِالأندلسِ
مجْتَلِي حُسْنٍ ورَئَا نَفْسِ
فَسَنا صُبْحَتِها من شَبَّ
وَدْجَنِي ظُلْمَتِها من لَعْنِ
فِإِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ صَبَا
صِحْتُ: وَاشْوَقِي إِلَى الأندلسِ

وكانت قواعد الأندلس على قديم الزَّمان: قُرطبة،
واشبيلية، وغرناطة، وطليطلة، وماردة، وسرقسطة. وكانت
ملوك القوط تتخذ في كل فصل من فصول السنة بلدًا من هذه
البلاد. ففي فصل الربيع ماردة، وفي فصل الصيف إشبيلية،
وفي فصل الخريف قرطبة، وفي فصل الشتاء طليطلة.

وكانت سرقسطة في صدر الإسلام بالأندلس قاعدة التَّغْرِيرِ
الأعلى.

وقيل إنها [يعني الأندلس] تضاهي مَدَائِنَ الْعِرَاقِ فِي
أنهارها، وكثرة أشجارها. وقد مضت تلك القواعد بسبيلها،
وأمرُها مشهور. وقاعدة الأندلس في زماننا هذا غَرْنَاطَةَ -
حرسها الله - وهي حضرة الإمارة النصرية أسمها الله تعالى،
تخترقها المياه نحواً من أربعين ميلاً. ويدخلها وخارجها
روضاتٌ ومتنزهات؛ رائقة المسميات والأسماء. تشابهت فيها
الأرض بالسماء، «السيبة» و«نَجْد» وغيرهما من معاهد
صور، ومغاني جمعت بين السباءين^(١) الممدود والمقصور كما
قلت من قصيدة:

ما بين «نَجْدٍ» والسيبة والجمي
أرض سمت حُسْنَا فأشبهت السما
أو ما رأيت النهر سال مجرة
فيها فاطلت المزاهير أنجحا
حيث التفاف الدُّفَق ينشر ظلة
بُرْداً بِمِطْرُوزِ المذايب مُعلماً^(٢)
والرُّوض يسبك كل ماء فضة
والحسن يطبع كل نور درهما...»

(١) السباء والسباء: الخمر.

(٢) المذنب: مسيل الماء إلى الأرض، والجدول يسيل عن الروضة.

قال الرُّندي في روضة الأنس أيضاً، في أثناء أحد استطراداته «وقد رُثيَ الحُسين قدِيمًا وحديثاً^(١)». وممَّن بكأه فاحزنَ ورثاه فأجاد وأحسن أبو بحر صفوانُ بن إدريس الأنْدُلُسِيَّ رحمه الله^(٢): ومن عجيب ما حُكِي عنه أنه دخل مراكش في أيام المنصور بن عبد المؤمن - رحمه الله - وهو صُفُرُ اليدين مُنقطع الحيلة: لا كيف ولا أين! لا يملك فتيلًا، ولا يجد للقاء السلطان سَبِيلاً. فعكف على رثاء الحُسَين يبكي مُصَابَه، ويُذكِّي به أوصابه. فَبَنَهُ المنصور في الليل عليه، وأمِرَ بالإحسان إليه. بعنابة نَبُوَّة جَبَرَتْ فَوَادَهُ، وأقامت مُنَادَهُ. فاستحضره المنصور - رحمه الله - وكشف له عن غَيْبِه، وأمكَّنَه من سَيِّبه. وبالغ في بُلوغِ أَرْبَهِ، وأنفذَ له ما أمر به.

(١) عن التشيع في الأندلس، راجع مقالة الدكتور محمود مكي في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريـد العدد ١ - ٢ سنة ١٩٥٤ وانظر مقدمة كتاب : درر السبط في خبر السبط لابن الآبار الأندلسي ، الذي حققه الدكتور عبد السلام المراس وسعيد أحد أعراب (طوان ١٩٧٢).

(٢) أبو بحر صفوان بن إدريس التنجيـي المروي ٥٦٠ - ٥٩٨. شاعر من مرسية بالأندلس له شعر ونثر. وألف كتاب : زاد المسافر وغرة عبي الأدب السافر ، الذي حققه عبد القادر مداد (الجزائـر). وانظر مقدمة الكتاب ففيها تفصيل عن صاحبه وأخباره.

وفي ذلك يقول مرج كحل^(١) من قصيدة له:

وَنُبَيَّثُ عَنْ صَفَوَانَ نِيلَ كَرَامَةٍ
جَهَاءُ بَهَا الرَّحْمَنُ وَالْخُلَفَاءُ
وَلَلَّهُ فِي صَفَوَانَ أَيْتَ آيَةٍ
تَكَشَّفُ عَنْهَا لِلْعِظَامِ غِطَاءُ
نَمَا ضَاعَ مِنْهُ فِي الْحُسَيْنِ انتصارَهُ
وَلَا خَابَ عَنْدَ اللَّهِ فِيهِ جَزَاءٌ

وحسيناته^(٢) رضي الله عنه كثيرة مشهورة نذكر منها ما يليق
بهذا الكتاب بحول الله عز وجل فمن ذلك قوله:

أَنْدُبُ الْطَّفَ وَسِبْطُ الْمُصْطَفَى
بِمَرَاثِهِ هُدَىٰ مِنْ بَعْدِهِ
لَا تَرُمُ ضَوْءَ هُدَىٰ مِنْ بَعْدِهِ
فِيرَاجُ الْهَدَىِ بِالْطُّفُ انْطَفَا . . .

ومما أحسن فيه الإنشاء وأجاد ما شاء المخمسة التي نظم
أقسامها على حروف المعجم، وذيل مراكيزها بأعجائز من

(١) أبو عبد الله محمد بن مرج الكحل (ويقال فيه مرج كحل) من أهل جزيرة
شفر (بلدة ابن خفاجة). وهو توفي سنة ٦٣٤ ببلده. وكان شاعراً مبدعاً،
وخلف ديوان شعر كان متداولاً.

(٢) كذلك في أصل المخطوطة. ولعلها: حسيناته.

قصيدة امرىء القيس التي أولها (ففا نبك من ذكرى حبيب
ومنزل) منها:

ديارُ الْهُدَى بِالْخَيْفِ وَالْجَمَرَاتِ إِلَى مُلْتَقِي جَمْعٍ إِلَى عَرَفَاتِ
مَجَارِي سَيُولِ الرَّغْيَمِ وَالْعَبَرَاتِ مَعَارِفُ هَذِي أَصْبَحَتْ نَكِراتِ
لِمَا نَسْجَنَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَائِلٍ

قال صاحب الكتاب^(۱): وقد المفت بطريقة صفوان -
رحمه الله - في رثائه عليه السلام بجملة حذوته فيها حذوة
فبلغت شاؤه بما هو في المعنى أغرب وإلى الحال أنساب^(۲).
وذلك أنني صنعت مخمسة على حروف المعجم مذيلة باعجاز
من قصيدة زهير؛ فيها:

أبِيتٌ فَلَا يُسَاعِدُنِي عَزَاءٌ إِذَا ذُكِرَ الْحُسْنُ وَكَربَلَاءُ
فَخَلُّ الْوَجْدَ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ لَمِثْلِ الْيَوْمِ يُدَخِّرُ الْبَكَاءَ!
«عَفَا مِنْ آلِ فَاطِمَةِ الْجَوَاءِ»

بعينك يا رسول الله ما بي دموعي في انهمال وانسكماب

(۱) كتاب روضة الأنس.

(۲) لم آنس في آثار الرندي ولا في أخباره ما يدل على تشييعه بالمعنى المذهبى. غير
أن هذا النص يدل على عطف الرندي على آبياتي ومحبته فيهم. ولم أقف
على غيره في تراثه وأخباره.

وَقْلِيٌّ فِي اِنْتَهَابٍ وَالْتَّهَابٍ عَلَى دَارِ مَكْرَمَةِ الْجَنَابِ
﴿عَفَّهَا الرِّيحُ بَعْدَكَ وَالسَّمَاءُ﴾

بَكَيْتُ مَنَازِلَ الصَّبَرِ السُّؤَادَ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْفَرَاتِ
مَعَالِمُ الْعُلَمَاءِ وَالْمَكْرُمَاتِ عَفَّتْ آثَارُهَا وَكَذَاكَ يَاتِي
﴿عَلَى آثَارٍ مِّنْ ذَهَبِ الْعَفَاءِ﴾

مصادر الكتاب

● المصادر المخطوطة

الإحاطة في أخبار غرناطة (نسخة مصورة في مكتبة صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد بدر). ثم طبع الكتاب في أربعة أجزاء. روضة الأنس ونزهة النفس (نقول من مخطوطة الأستاد محمد المنوفي).

الوافي في نظم القوافي للرندي (النسخة التيمورية ونسخة الرباط).

● مصادر البحث وبرامج المطبوعة

- أحكام صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي تحقيق د. محمد رضوان الداية - بيروت.
- الاستقصاص لأخبار المغرب الأقصى للسلاوي (المغرب).
- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد. ت. د. ضيف.
- اللمحة البدوية في الدولة النصرية - ابن الخطيب - القاهرة.
- المعيار في أوزان الأشعار للشتريني - ت. د. الداية.
- البيان المغرب لابن عذاري (طبعه مصورة).

- تاریخ الأدب الجغرافي - کراتشکوفسکی مترجم -
القاهرة ج ١ - ٢ .
- التاریخ الأندلسي د. الحجی - ط دمشق .
- تاریخ الشعوب الإسلامية لبرو کلمان (مترجم) - بيروت .
- تاریخ الفكر الأندلسي . بالثانيا - مترجمة د. مؤنس .
- تاریخ النقد الأدبي في الأندلس - د. الدایة - بيروت .
- الحلة السيراء لابن الأبار القاهرة ج ١ - ٢ .
- ابن خفاجة (دراسة د. الدایة) - دمشق .
- درر السمط في خبر السبط - طوان .
- ديوان ابن سهل الإشبيلي - بيروت (دار صادر) .
- الذخيرة السنية لابن أبي زرع - الرباط .
- الذيل والتكميلة لابن عبد الله المراكشي - الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بنشريفه - بيروت .
- رحلة ابن جبیر (دار صادر) .
- الروض المعطار للمحميري (ل. بروفنسال) مصر .
- زاد المسافر - صفوان بن إدريس - الجزائر .
- الشعر الأندلسي - غومز - ت مؤنس - القاهرة .
- صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (٦/١) .
- صلة الصلة لابن الزبير (بروفنسال) .
- عصر المرابطين والموحدين (ت) عنان - القاهرة .
- عصر الطوائف والمرابطين د. إحسان عباس - بيروت .
- مختارات من الشعر الأندلسي د. الدایة - دمشق .

للْمُحَقِّق

في سلسلة دراسات أندلسية :

- ١ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس - دار الأنوار (بيروت - دمشق) ١٩٦٨ . ١ الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة - دمشق ١٩٨٠ .
- ٢ - المعيار في أوزان الأشعار لمحمد بن عبد الملك الشترنبي - الطبعة الأولى - دار الأنوار (بيروت - دمشق) ١٩٦٨ . الطبعة الثانية - دمشق ١٩٧٠ .
- ٣ - مختارات من الشعر الأندلسي - المكتب الإسلامي - دمشق ١٩٦٩ . الطبعة الثانية ١٩٧٢ - دمشق . (نقد) .
- ٤ - ديوان ابن خاتمة الانصاري - تحقيق - صدر عن وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٢ . الطبعة الثانية - دار الحكمة - دمشق - ١٩٧٩ . (نقد) .
- ٥ - الإنصاف بذكر أسباب الخلاف لابن السيد البطليوسى - تحقيق - نشر دار الفكر بدمشق ١٩٧٣ .
- ٦ - شرح مشكل شعر المتنبي - لابن سيدة الأندلسى - تحقيق - نشر دار المأمون بدمشق ١٩٧٥ .

- ٧ - ديوان أبي إسحاق الألبيري - تحقيق - نشر مؤسسة الرسالة (بيروت - دمشق) الطبعة الثانية ١٩٨٢ م .
- أعلام المغرب والأندلس - مؤسسة الرسالة - .. (نقد) .
- ٩ - رائق التحلية في فائق التورية لابن زرقالة - دار الحكمة - دمشق ١٩٧٩ . (نقد) .
- ١٠ - ديوان ابن عبد ربه - مؤسسة الرسالة - دمشق ١٩٧٨ . (نقد) .

في سلسلة الذاخائر :

- ١ - ابن خفاجة (دراسة) نشر المكتب الإسلامي - دمشق ١٩٧٢ .
- ٢ - أبو البقاء الرندي (دراسة) نشر مؤسسة الرسالة (دمشق - بيروت) ١٩٧٦ . الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٦ - ١٩٨٥ .

في المكتبة الأندلسية :

- ١ - إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي - (تحقيق) بيروت - دار الثقافة ١٩٦٥ . الطبعة الثانية - عالم الكتب بيروت ١٤٠٥ - ١٩٨٥ .
- ٢ - نشير فرائد الجمان لابن الأحمر - (تحقيق نص أندلسي) دراسة عن المؤلف وأدبها وكتابه دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٦ . (الطبعة الثانية للنص - عالم الكتب - بيروت ١٤٠٥ - ١٩٨٥) .

أعمال أخرى :

- [- الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي - تحقيق بالاشتراك - نشر وزارة الأوقاف - الكويت - ١٩٦٧ . (نقد) .

- ٢ - **أعلام الأدب العباسي** - ترجم و اختيارات - نشر دار الفارابي - دمشق ١٩٧١ والطبعة الثانية في مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٧٩ . (نقد).
- ٣ - ابن زيدون (محاولة لإعادة النظر في دراسة شخصيته وشعره) بحث قدم إلى مهرجان ابن زيدون في ذكراه الالفية بالرباط (المغرب) - منهج جديد لدراسته . (نقد).
- ٤ - **المنصف لابن وكيع التنيسي** (تحقيق) - دمشق - ١٩٨١ .
- ٥ - **تفسير ابن جزي** (تحقيق بالاشراك) بديء بطبعته في مؤسسة الرسالة دمشق - بيروت :
- ٦ - بحوث في الأدب الأندلسي - طبع جامعة دمشق - ١٩٨٠ . (نقد).
- ٧ - **الأدب العربي في الأندلس والمغرب** - جامعة دمشق ١٩٨٣ .

تحت الطبع :

- لسان الدين بن الخطيب : في سلسلة الذخائر.
- ابن زيدون : دراسة في ضوء منهج جديد : في سلسلة الذخائر.
- أبو إسحاق الإلبيري الأندلسي : زاهد الأندلس الشاعر في سلسلة الذخائر.
- ديوان أبي الحسن بن الجيّاب - تحقيق ودراسة .
- أمة قد خلت (دراسة) .
- ديوان ابن زيدون في سلسلة دراسات أندلسية .
- رحلة البلوي . في سلسلة دراسات أندلسية .
- ابن زمرك شاعر قصر الحمراء (دراسة) في سلسلة الذخائر.

- جواهر الأداب وذخائر الشعراء والكتاب لابن عبد الملك الشتربي (تحقيق ودراسة).
- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح الواحدي.
- ابن أبي الحِصَال رئيس كتاب الأندلس - في سلسلة الذخائر.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تحقيق د. محمد رضوان الداية ود. فايز الداية الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٦ هـ.
- الحماسة المغربية.
- رایات المبرزین لابن سعید المغربي الأندلسي.





فهرس الكتاب

٧ - ٥	مقدمة الطبعة الأولى
الفصل الأول:	
٢٣ - ١١	الحياة السياسية
١٤	عصر الرُّندي
١٩	دولة غرناطة في ظل بنی الأخر
٢٣	حال المشرق
٢٨ - ٢٦	الحياة الاجتماعية
٣٢ - ٣٩	الحياة العقلية
الفصل الثاني:	
٤٨ - ٣٣١	حياة الرُّندي
٣٥	اسمه وكنيته
٣٦	نسبته

٣٧	مولده ووفاته
٣٨	أسرته
٣٩	رحلاته وتغربه عن رُنده
٤١	جوانبه واهتمامه
٤٢	شخصيته الرندي
٤٣	صلته بدولة بني نصر
٤٥	علاقته بأدباء عصره
٤٧	مؤلفاته

الفصل الثالث:

١١٧-٤٩	أدب الرندي
٥١	الرندي شاعراً
٥٥	أغراض شعر الرندي
٥٥	ال مدح
٦٤	الغزل
٧٠	الوصف
٧٥	الرثاء
٨٠	أغراض أخرى
٨٤	الجهاديات وشعر رثاء البلاد الإسلامية المغلوبة
٩٥	دراسة في شعر الرندي

الرندی ناقداً	١٠٤
الوافي في نظم القوافي	١٠٤
عرض الكتاب	١٠٥
الرندی كاتباً	١١٠
كتابه روضة الأنس ونزهة النفس	١١٣
مختارات من آثاره	١١٧
مختارات شعرية	١٦١ - ١١٩
مختارات نثرية	١٦٧ - ١٦٢

مكتبة لسان العرب
www.lisanarab.com

ابوالبقاء الرندي
شاعر رثاء الأندلس